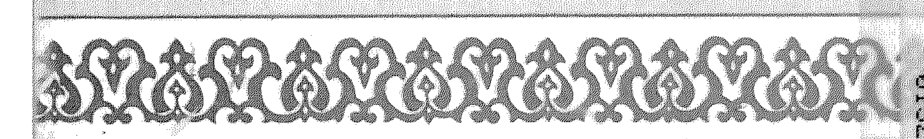
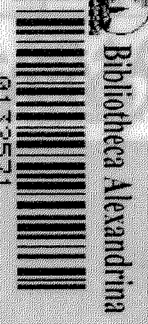
من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

(١)

دكتور يوسف القرضاوي

الصبر في القرآن





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الدكتور يوسف القرضاوي

الصبر في القرآن

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثالثة

١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م

فالكون للدعاية والإعلان

٥ شارع البطل أحمد عبد العزيز ت : ٣٩٢٧٦٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه .

أما بعد . .

فإن القرآن كتاب الله الخالد ، ودستور الإسلام الجامع ، وآية الرسول العظمى ، ومعجزته الباقية الكبرى . وهو مصدر الإسلام الأول ، عقيدة وشريعة ، وأخلاقاً وآداباً ، أودعه الله من كنوز المعرفة ، وأسرار الحق ، وأصول العدل ، ومناهج الخير ، وضوابط السلوك ، وقواعد الهداية والتشريع ، ما ينطق بأنه : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

إنه الهدى والضياء ، والعلاج والشفاء ، للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) . لهذا يجب أن تستمد من معينه فلسفة الحياة ، ونظام الحياة ، فلا يصح الاعتقاد ، ويقبل التعبد وتطهر الأخلاق ، وتزكو الأنفس ، وتستقيم الأفكار ، وينتظم التعامل ، ويتحقق العدل ، ويسعد الفرد ، ويرقى المجتمع ، إلا إذا بنى ذلك كله على أساس من هداية القرآن .

ولقد جهد العلماء من السابقين واللاحقين جهدهم ، أن يتواصوا على أسرار هذا الكتاب المجيد ، ويستخرجوا لآلئه ، وينبشوا عن كنوزه ، كل فى مجال اختصاصه ، وميدان اهتمامه ، ففتح الله لهم ما شاء من أسرار هذا الكتاب ، وأفاض عليهم من ذلك ما تحتمله طاقة البشر ، وما يلائم الزمان والمكان والحال ، وظهرت عشرات ، بل مئات من التفاسير ، مختلفة المشارب ، متنوعة المذاهب ، متعددة الألوان ، ما بين طويل مبسوط ، ووجيز مختصر ،

---

(١) فصلت : ٤٢ .   (٢) يونس : ٥٧ .

ووسيط بين البسط والاختصار . منها ما اعتمد على النقل والرواية ــ ومنها ما اعتمد على الرأى والدراية ، ومنها ما جمـــع بينهما .

منها ما تحررمن المذهبية ، ومنها ما غـــلب عليــه طابــع خـاص : كـلامى أو فقهى أو صوفى . بـل منها ما خرج عن حدود اللغة وأصول الشرع ، فضلاً عن سواء السبيل : كتفاسير الباطنية .

وظهـــرت بجـــوار التفاسير الكاملة للقرآن ، أنواع أخرى من المؤلفات والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للناس .

وذلك مثل المؤلفات فــى « أحكام القرآن » أو فى « علوم القرآن » بصفة عامة ، أو فى فرع أو نوع خاص منها ، مثل : إعجاز القرآن ، أو مجاز القرآن ، أو القراءات وما يتعلق بها ، أو أصول التفسير . . . إلى غير ذلك من ألوان العلوم التى تنتسب إلى القرآن ، وتقصد إلى خدمته .

وفى عصرنا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنية ، وإن شئت قلت : لون جديد من التفسير للقرآن ، وهو تفسير القرآن ، حسب الموضوعات التى اشتمـل عليها ، وهو ليس تفسيرا بالمعنى الاصطلاحى المألوف ، بل هــو جمع للآيات الواردة فى الموضوع فى مختلف سور القرآن ، ثم تصنيفها ، والاستنباط منها أو التعقيب عليها . وقــد عرفـنا منها نموذجاً فى القديم يتمثل فـى كتاب « التبيان فى أقسام القرآن » للإمام ابن القيم .

أمـا حديثاً فرأينا ذلك فى كتاب «الوحى المحمدى » للسيد رشيد رضا . حيث تحدث فيه عن مقاصد القرآن ، وفصلها فى ثمانية مقاصــد . استشهد لكل مقصد منها بالآيات المتعلقة به .

ورأينـــاه فـــى رسالتين للشيخ محمود شلتوت ، شيخ الأزهر الأسبق، وهما : « القرآن والقتال » و « القرآن والمرأة » .

ورأينا فى هذا المجال أكثرمن كتاب للأستاذ عباس محمــود العقاد مثل : «المرأة فى القرآن الكريم » و « الإنسان فى القرآن الكريم » وكذلك « الفلسفة القرآنية » .

وللمغفور لــه الشيـــخ الدكتور محمد عبد الله دراز كتابــه القيم « دستور

الأخـلاق فى القرآن » الذى ألفه بالفرنسية ، وحصل به على درجة الدكتوراة من السوربون ، وترجمه أخيراً الدكتور عبد الصبور شاهين إلى العربية .

ومـن هـذا اللون بعض كتب الأستاذ محمد عزت دروزة مثل :« الدستور القرآنى فى شئون الحياة » و « سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن » و« القرآن والضمان الاجتماعى » ومن ذلك كتاب الأستاذ محمد شديد « التربية فى القرآن الكريم ».

وكتب ورسائل أخرى تتناول موضوعاً أو أكثر مـن موضوعات القرآن بالشرح والتحليل .

ورأيى أن هذا اللون من الدراسات القرآنية جد نافع ، وخاصة فـى عصرنا ، ولا يغنى عنه وجود التفاسير الكاملة للقرآن كله على النسق المألوف .

وذلك لأن التوفُّر على موضوع واحد معين ، وتتبع موارده ومآخذه فى القرآن كله ، مكيه ومدنيه ، لتجلية جوانبه كلها ، يهيئ لـه من العناية والبيان والدراسة ، ما لا يتهيأ له لو درس أثناء التفسير الكلى العام .

كما أن هـذا النـوع من التفسير يفسح المجال للدارسين فى شتى التخصصات ، ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره .

فرجل الفقه يعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود . . . إلخ .

ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والإنفاق .

ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية .

ورجل التربية يعنى بآيات التوجيه والإرشاد والقصص وغيرها. . . وهلم جراً.

وهكذا يعنى كل متخصص بموضوع تخصصه ومجال اهتمامه ، ويركز عليه ، ويجدد بما أوتى من علم وفى هذا فائدة أكبر .

وأمر ثالث : وهو أن تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق أن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز ، يتمثل فى معنى القرآن وحضريته ، وسعـة ما احتوى من موضوعات قيمة تعد بالمئات ، بل بالآلاف ، مع أنه كتاب محدود الصفحات ، ويوضع فى« الجيب» ، وأن الذى أتى به رجل أُمى فى أُمة أُمية.

وإيمـاناً منى بهـذه الفكرة شرعت أكتب عن بعض الموضوعات القرآنية على هـذا النسق ، وها أنذا أقدم اليوم نموذجاً منها ، وهـو « الصبر فى القرآن » آملاً أن تتبعـه نماذج أخرى ، بتوفيق الله تعالى وعونه ، سائلاً الله تعالى أن يكـون فيـه ما يساعـدنا على الاهتداء بنـور القـرآن ، والاعتصام بحبلـه ، والاستقامـة على صراطه ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

د . يوسف القرضاوى

* * *

الفصل الأول

حَقِيقَةُ ٱلصَّبْرِ فِى ٱلْقُرْآنِ وَضَرُورَتُهُ

• كم ذُكِرَ الصبر فى القرآن ؟

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التى عنى بها الكتاب العزيز فى سوره المكية والمدنية . وهو أكثر خلق تكرر ذكره فى القرآن .

يقول الإمام الغزالى فى كتاب « الصبر والشكر » من « ربع المنجيات » من كتابه « إحياء علوم الدين » : ذكر اللّه تعالى الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً (١) .

وينقل العلامة ابن القيم فى « مدارج السالكين » عن الإمام أحمد قوله : الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعاً (٢) .

وكذلك ينقل أبوطالب المكى فى « قوت القلوب » عن بعض العلماء قوله : أى شئ أفضل من الصبر ، وقد ذكره اللّه تعالى فى كتابه فى نيف وتسعين موضعاً ؟ !

ولا نعلم شيئاً ذكره اللّه تعالى هذا العدد إلا الصبر (٣) .

والناظر فى « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » يجد مادة (ص ب ر) بكل مشتقاتها قد وردت فى القرآن مائة مرة وبضع مرات .

ولا تنافى ـ فى رأيى ـ بين هذة التقديرات على اختلافها ، وبين الإحصاء الرقمى للمعجم المفهرس ، لأن الموضع الواحد قد تذكر فيه مادة (ص ب ر) أكثر من مرة ، فيحسبها بعضهم موضعاً واحداً ، وبعضهم موضعين أو أكثر . مثال ذلك فى قوله تعالى فى أواخر سورة النحل : ﴿ وإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٦١ ، ط. دار المعرفة ببيروت

(٢) مدارج السالكين جـ ٢.

(٣) قوت القلوب جـ ١ ص ١٩٧.

مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ (١) . فالمادة هنا ذكرت أربع مرات فى آيتين ، بحيث يمكن أن تُحسب موضعاً واحداً ، وأن تحسب موضعين باعتبارين . وفى قصة موسى مع العبد الصالح فى سورة الكهف (٢) تردد ذكر الصبر عدة مرات ، ويمكن اعتبارها كلها موضعاً واحداً .

وقوله تعالى :﴿ والصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ (٣) موضع واحد بلا شك ... وهكذا .

والصبر فى اللغة : الحبس والكف . ومنه : قُتِلَ فلان صبراً ، إذا أُمسك وحُبس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ (٤) أى احبس نفسك معهم .

ويقابل الصبر : الجزع . كما فى قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٥) .

وهو فى القرآن يعنى : حبس النفس على ما تكره ، ابتغاء مرضاة الله . كما قال تعالى : ﴿ والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ (٦) .

* * *

• أنواع الصبر فى القرآن :

وما تكرهه النفس أنواع وألوان شتى ، ولهذا تتسع دائرة الصبر فتشمل مجالات رحبة أكثر مما يقف عنده ـ عادة ـ كثير من الناس إذا ذُكرت كلمة « الصبر » .

يقول الإمام الغزالى : « اعلم أن الصبر ضربان أحدهما : ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل ، كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة » .

---

(١) النحل : ١٢٦ ، ١٢٧
(٢) الكهف : ٦٧ وما بعدها
(٣) الأحزاب : ٣٥
(٤) الكهف : ٢٨
(٥) إبراهيم : ٢١
(٦) الرعد : ٢٢

قال الغزالى : « وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ، ومقتضيات الهوى .

ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمى عفة .

وإن كان عن احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر .

فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم « الصبر » وتضاده حالة تسمى «الجزع والهلع » وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب وغيرهما .

وإن كان فى احتمال الغنى سمى « ضبط النفس » وتضاده حالة تسمى « البطر » .

وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى « شجاعة » ويضاده « الجبن » .

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى « حلماً » ويضاده « التذمر » .

وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة ، سمى « سعة الصدر» ويضاده « الضجر والتبرم وضيق الصدر » .

وإن كان فى إخفاء كلام سمى « كتمان السر » وسمى صاحبه « كتوماً » .

وإن كان عن فضول العيش سمى « زهداً » ويضاده « الحرص » .

وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمى « قناعة » ويضاده « الشره » .

فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

ولذلك لما سئل عليه الصلاة و السلام مرة عن الإيمان قال : « هو الصبر » لأنه أكثر أعماله وأعزها . كما قال : « الحج عرفة » .

وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك ، وسمى الكل صبراً فقال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ (أى المصيبة) وَالضَّرَّاءِ (أى الفقر) وَحِينَ الْبَأْسِ (أى المحاربة) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١)

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم ، وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعانى أولاً ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى ، فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد أن يزل » ا. هـ (١)

وهذا كلام نفيس ، وتحقيق جليل .

ومن هنا نفهم كيف جعل القرآن الصبر وحده مناط الفلاح فى الآخرة ، ودخول الجنة واستحقاق التحية من الملائكة ، وذلك فى مثل قوله تعالى فى شأن الأبرار من عباده : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَاصَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ (٢) ، وفى شأن عباد الرحمن : ﴿ أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ (أى الجنة) بِمَاصَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَاتَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ (٣) ، وفى شأن أولى الألباب من عباده الأخيار : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٤) فالصبر هنا يحمل فى طياته جملة شعب الإيمان ، وأخلاق الإسلام .

* * *

● الصبر خصيصة إنسانية :

ولما كان الإنسان هو المخلوق العاقل المكلف المبتلى ، كان الصبر خصيصة من خصائصه المميزة .

يقول الإمام الغزالى فى تحليل معنى الصبر وبيان حقيقته : « الصبر خاصية الإنس ، ولا يُتصور ذلك فى البهائم ولا الملائكة ، أما البهائم فلنقصانها. وأما الملائكة فلكمالها .

وبيانه :أن البهائم سُلطَتْ عليها الشهوات ، وصارت مُسَخَّرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة «صبراً».

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) الإنسان : ١٢ .

(٣) الفرقان : ٧٥ .

(٤) الرعد : ٢٣ ـ ٢٤ .

وأما الملائكة عليهم السلام ، فإنهم جُرِّدوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القُرب منها ، ولم تُسلط عليهم شهوة صارفة صادةٌ عنها ، حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الإنسان فإنه خُلِقَ فى ابتداء الصبا ناقصاً مثل البهيمة ، لم يُخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والريبة ، ثم شهوة النكـــــاح (الشهوة الجنسية) على الترتيب . وليس لـــه (يعنى فى طفولته) قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر، قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس فى الصبى إلا جند الهوى كما فى البهائم » .

ثم يبين الإمام الغزالى أن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم الإنسان ورفع درجته عن البهائم ، فأمده - عند مقاربة البلوغ - بقوتين : قوة تهديه إلى معرفة الحقائق الكبيرة ، بها يعرف الله ورسوله ، ويعرف المصالح المتعلقة بالعواقب ، وبها يتميز عن البهيمة التى لا تهتدى إلا إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط . فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة.

وقوة أخرى مكملـــة للأولى تؤيـــد الإنسان وتشد أزره فى معركته مع الهوى وجند الشيطان ، بـــها يـــدفع فى نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يدفع عداوتها عن نفسه .

قال الغـــزالى : « فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمـــع الشهـــوات وقهـــرها « باعثاً دينياً » ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتـها « باعث الهـوى » ، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال . ومعركة هذا القتال قلب العبد . ومدد باعث الدين من الملائكة الناصـــــرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعـــداء الله تعالى . فالصبر عبـــارة عن ثبات باعث الـــدين فى مقابلـــة باعث الشهـــوة . فإن ثبت حتى قهره واستمـــر على مخالفـــة الشهـــوة فقـــد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى

غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق بأتباع الشياطين » ا هـ [1] .

* * *

● **ضرورة الصبر :**

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر ، إلى ما له من قيمة كبيرة دينية وخُلُقية ، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكَمِّلة ، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً ، ويسعد فردياً واجتماعياً ، فلا ينتصر دين ، ولا تنهض دنيا إلا بالصبر .

فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية .

فلا نجاح فى الدنيا ، ولا فلاح فى الآخرة إلا بالصبر .

فى الدنيا ، لا تتحقق الآمال ، ولا تنجح المقاصد ، ولا يؤتى عمل أكله إلا بالصبر . فمن صبر ظفر ، ومن عدم الصبر لم يظفر بشئ ..

لولا صبر الزارع على بذره ما حصد ، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى ، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج ، ولولا صبر المقاتل فى ساح الوغى ما انتصر . وهكذا كل الناجحين فى الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر ، استمرأوا المر ، واستعذبوا العذاب ، واستهانوا بالصعاب ، ومشوا على الشوك ، وحفروا الصخور بالأظافر ، ولم يبالوا بالأحجار تقف فى طريقهم . والطعنات تغرس فى ظهورهم ، وبالشراك تنصب للإيقاع بهم ، وبالكلاب تنبح من حولهم ، بل مضوا فى طريقهم غير وانين ولا متوقفين . مغضين الأعين على القذى ، ساحبين الذيول على الأذى ، متذرعين بالعزيمة ، مسلحين بالصبر .

وما أصدق قول الشاعر :

وقَلَّ مَنْ جَدَّ فى أمرٍ يحاوله ... واستصحبَ الصبرَ إلاَّ فازَ بالظفر

قد يعثرون ثم لا يلبثون أن ينهضوا ، وقد يخطئون ثم يوشكون أن يصيبوا . وقد يجرحون ثم لا يلبث جرحهم أن يندمل . وقد يفشلون مرة ومرة فلا يلقون السلاح ، ولا يستسلمون لليأس ، ولا يفقدون نور الأمل . شعارهم قول الشاعر الحكيم :

---

(١) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ٦٢-٦٣ .

لا تيأسن و إن طالت مطالبة

إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

لقد عرف عُشّاق المجد ، وخُطّاب المعالى ، وطُلاَّب السيادة ، أن الرِفعة فى الدنيا كالفوز فى الآخرة ، لا تنال إلا بركوب متن المشقات ، وتجرع غصص الآلام ، والصبر عن كثير مما يحب ، وعلى كثير مما يكره . وبدون هذا لا يتم عمل ، ولا يتحقق أمل، ومن تخيل غير هذا الطريق كان كالذى قال لابن سيرين : إنى رأيتنى فى النوم أسبح فى غير ماء ، وأطير بغير جناح ! ! فقال له : أنت رجل كثير الأمانى والأحلام ، تتمنى ما لا يقع ، وتحلم بما لا يتحقق !!

وفى شعر الحكم نقرأ كثيراً فى هذا المعنى . يقول أحدهم

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ويقول المتنبى ، وقد كان طموحاً لمنصب الولاية :

لا يبلغ المجد إلا سيد فطن

لما يشق على السادات فعّال

لولا المشقة ساد الناس كلهم

الجود يفقر والإقدام قتّال !

وفى قصيدة أُخرى يقول مخاطباً نفسه :

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا

فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل !

تريدين إدراك المعالى رخيصة

ولابد دون الشهد من إبر النحل !

وإذا كانت هذه طبيعة الطريق الموصلة إلى العلا والمجد ، فلا سبيل إلى اجتيازها إلا بالصبر ، ولا يقدر عليها إلا الصابرون .

والصبر مفتاح ما يُرجى
وكل صعب به يهون

فاصبر وإن طالت الليالي
فربما أسلس الحرون

وربما نِيل باصطبار
ما قيل : هيهات لايكون

هذا إذا نظرنا إلى النجاح فى الدنيا . فكيف إذا نظرنا إلى الفلاح فى الآخرة ؟ !

إن الحاجة إلى الصبر تبدو هنا أوكد ، والضرورة إليه أشد وألزم .

يقول أبو طالب المكى فى كتابه « قوت القلوب » : « اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة ، وسبب النجاة من النار، لأنه جاء فى الخبر :« حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات » . فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ، ليدخل الجنة ، وإلى صبر عن الشهوات ، لينجو من النار » (١) .

وفى مقام آخر يقول : « واعلم أن كثرة معاصى العباد فى شيئين : قلة الصبر عما يحبون ، وقلة الصبر على ما يكرهون » (٢) .

الصبر إذن ضرورة للناس عامة ، وللمؤمنين خاصة .

والقرآن يشير إلى ضرورة الصبر وأهميته ، حين يحدثنا عن خَلْق الإنسان وما حُفَّ به من ابتلاء ومكابدة ومعاناة .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾ (٣) ويقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ (٤) أى فى شدة ومشقة ، لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة اللذات بالآلام ، وما يعانيه بعد بلوغه من الابتلاء بالمسئولية وأمانة التكليف ، التى تنوء بحملها السموات والأرض والجبال ، وما يعانيه من الناس من حدة اللسان ، وأذى اليد وحسد النفس .

* * *

(١) قوت القلوب جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ .
(٣) الإنسان : ٢ .
(٤) البلد : ٤ .

● **ضرورة الصبر للمؤمنين :**

وإذا كان هذا شأن الإنسان بصفة عامة ، فأهل الإيمان - على وجه خاص - أشد تعرضاً للأذى والمحن والابتلاء فى أموالهم وأنفسهم وكل عـــزيـــز لديهـــم ، فقـــد اقتضى نظام الكون أن يكون لهم أعداء يمكرون بهم ويكيدون لهم ويتربصون بهم الـــدوائر ، كـــذلك جعل الله لآدم إبليس ، ولإبراهيم نمروذ ، ولموسى فـــرعون ، ولمحمد أبا جهل وأمثاله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾(١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (٢) .

وكـــذلك يكون المؤمنون من أتباع الأنبياء ، هم أشـــد الناس بلاء بعد الأنبياء : الأمثل فالأمثل .

ومن ظن أن طريق الإيمان مفروشة بالأزهار والرياحين ، فقـــد جهـــل طبيعـــة الإيمان بالرسالات ، وطبيعة أعداء الرسالات .

ولعل هـــــذا الحسبان أو الوهم داخل نفوس بعض المؤمنين فى العهد المكى بعد أن أصابهم من العذاب ما أصابهم ، فنزل قوله تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَيُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (٣).

بل فى العهد المدنى نجد القرآن المدنى ينفى مثل هذا الحسبان الواهم ، فى مثل قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (٤) .

الجنة إذن لا بد لها من ثمن ، وهى سلعة غالية ، فلا مفر من الثمن . وقد دفعه أصحاب الدعوات من قبل ، فلا بد أن يدفعه إخوانهم من بعد . وهذا هو ثمن الجنة : الصبر على البأساء تصيب الأموال ، والضراء تصيب الأبدان ،

---

(١) الفرقان : ٣١ — (٢) الأنعام : ١١٢
(٣) العنكبوت : ١ - ٣ — (٤) البقــرة : ٢١٤

والزلزلة تصيب النفوس . ولا بد أن يبلغ هذا الزلزال النفسى من الشدة إلى حد يقول عنده الرسول - أى رسول - والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ يستبطئونه فقد طال انتظارهم له ، وطالت فترة الأذى عليهم وطالت شماتة العدو بهم ، فمتى يجئ إذن نصر الله الموعود ؟ !

وفى أعقاب غزوة أحد ، التى مَسَّ المسلمين فيها من القرح ما مَسَّهم ، وفقدوا سبعين شهيداً من أبطالهم ، ينزل القرآن فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وفى سورة التوبة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ﴾ (٢) .

ومن هنا أمر القرآن المؤمنين أن يستعينوا بعدتى الصبر والصلاة على ما يواجههم من محن فى سبيل دعوتهم ، فقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) . ثم عزاهم فيمن فقدوا من أحبابهم ممن اتخذهم الله شهداء فقال : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ، بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (٤) .

ثم بيَّن ما ينتظرهم من ألوان البلاء ، مؤكداً ذلك بلام القسم ونون التوكيد ، إذ يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(٥) .

فالبلاء هنا بلاء عام ، يصيب القلوب بالخوف ، والبطون بالجوع ، والأموال بالنقص ، والأنفس بالموت ، والثمرات بالآفات . ومن لطف الله تعالى ورحمته هنا أنه جعل البلاء : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ .... ﴾ الخ ، وتنكير « شئ » هنا - كما يدل عليه السياق - للتقليل والتحقير ، لأن ما هو

(١) آل عمران : ١٤٢
(٢) التوبة : ١٦
(٣) البقرة : ١٥٣
(٤) البقرة : ١٥٤
(٥) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦

أكثر وأكبر لا يطيقونه ، فمسَّهم بشئ قليل من البلاء ، تخفيفاً عنهم ، ورحمة بهم ، وتقديراً لضعفهم .

ومثل هـــذا التأكيد على ضرورة البلاء للمؤمنين خاصة،ما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) .

وهنا عدة ملاحظات في هذه الآية الكريمة جديرة بالانتباه والتسجيل :

الأولى : أن الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة ﴿ أَذًى كَثِيراً ﴾ ، وهذا يدل على أن حرباً كلاميـــة ستُعلن علـى أهل الإيمـــان ، لتشويـــه دعوتهـم ، وتلويث سمعتهـم ، والتشكيـــك في سيرتهم وسريرتهم ، وهي حرب أسلحتها الدس والتحريف والافتراء ، فلا بد أن يوطن المؤمنون أنفسهم على احتمال مكارهها ، ويصبروا على تجرع غصصها ، حتى يحـــق الله الحـــق ويُبطل الباطل .

الثانية : أن الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى ، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتى يجمعوا على تقوى الله تعالى . ومعنى التقوى هنا : التعفف عن مقابلة الخصوم بمثل أسلحتهم الدنيئة ، فلا يواجَه الدس بالدس ، ولا الافتراء بالافتراء ، لأن المؤمنين تحكمهم قيمهم الأخلاقية في السلم والحرب والرخاء والشدة .

الثالثة : أن الآية قرنت كـــذلك بين الـــذين أُوتوا الكتاب ـ من اليهـود والنصارى ـ وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومن على شاكلتهم ، هذا مع اختلاف الفريقين في الدين والوجهة . وفي هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحدَّت بينهم على ما بينهم مـن اختـلاف . وهذا ما أثبته التاريخ قديماً ، وأثبته الواقع حديثاً . أثبته التاريخ حينما وجدنا اليهود ـ وهم أهل كتاب ـ

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .

ينضمون إلى جهة المشركين عُبَّاد الأوثان من قريش وغطفان وغيرهما فى حرب النبى ﷺ ، إلى غير ذلك من وقائع التاريخ .

وأثبته الواقع المعاصر ، حيث وجدنا اليهودية العالمية ، والشيوعية الدولية ، والصليبية الغربية والشرقية تختلف فيما بينها أشد الاختلاف ، ثم تتناسى هذا كله حين يكون العدو هو الإسلام ، فتجتمع كلمتها على حرب أمة الإسلام ودعوة الإسلام . وهذا مصداق ما جاء فى القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾[1] ، ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [2]

ومن هنا قرر فقهاؤنا : أن الكفر كله ملة واحدة .

* * *

● **ضرورة المحن لأهل الإيمان :**

وإنما كانت المحن ضرورة لأهل الإيمان لجملة معان وحكم نبَّه عليها القرآن ، وخصوصاً فى أعقاب غزوة أحد ، منها :

١ ـ تطهير الصف المؤمن من أدعياء الإيمان من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض . فإبَّان العافية والسراء يختلط فيها الحابل بالنابل ، والخبيث بالطيب ، وإنما يقع التمييز بين الأصيل والدخيل بالمحن والبلاء ، كما يتميز الذهب الحقيقى من الزائف بالامتحان بالنار .

وفى هذا يقول القرآن فى سورة آل عمران التى نزل نحو ثمانين آية منها بعد أحد : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [3].

إن من الناس من يدخل فى زمرة المؤمنين ويلبس لبوسهم ، ويتكلم بلسانهم فإذا أصابته فتنة أو محنة فى سبيل دينه ، خارت قواه ، وانحلت عراه ، وبرئ مما كان يَدَّعيه من قبل .

---

(١) الأنفال : ٧٣ (٢) الجاثية : ١٩

(٣) آل عمران : ١٧٩

وفى هذا النموذج من البشر يقول القرآن : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ، أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ (١) .

ونحو هذا النموذج الذى يقول بلسان مقاله ما يكذبه لسان حاله ، نموذج آخر ذكره القرآن فى سورة الحج : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾(٢) .

فالمحن التى تعرض لأصحاب الدعوات هى التى تميز هذه الأصناف وتفرزهم من بين المؤمنين ، وتنفى الخبث من صفوفهم كما ينفى الكير خبث الحديد .

٢ - تربية المؤمنين ، وصقل معادنهم ، وتمحيص ما فى قلوبهم ، فهم ينضجون بالمحن كما ينضج الطعام بالنار .

يقول الله تعالى تعقيباً على معركة أحد : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

ويقول فى موضع آخر من نفس السورة : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٤) .

٣ - زيادة رصيدهم ومقامهم عند الله ، فهو يرفع درجاتهم ، ويضاعف حسناتهم ، أو على الأقل - يكفر خطاياهم ، حتى يمشى أحدهم على الأرض وما عليه خطيئة ، غسلته المحن غسلاً ، وطهرته الشدائد تطهيراً .

وإذا كانت الخطايا لازمة للبشر ، لأنهم ليسوا ملائكة مطهرين ، ولم تضمن العصمة من الذنوب لأحد غير الأنبياء ، فإن من رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين

---

(١) العنكبوت : ١٠ ، ١١
(٢) الحج : ١١
(٣) آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١
(٤) آل عمران : ١٥٤

أن يتعهدهم بالابتلاء بعد الابتلاء ، لتتحات عنهم الخطايا بالصبر والاحتساب ، كما يتحات ورق الشجر فى الشتاء إذا يبس .

وفى الحديث الصحيح : « ما يصيب المسلم من هَـم ولا غَم ولا نَصَب ، ولا وَصَب ، ولا حُـزْن ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه ». (رواه البخارى)

* * *

• ضرورة الصبر لرسل الله :

وإذا كـان الصبر ضرورة لازمة لأهل الإيمان ، فهو أكثر لـزوماً لرسل الله عليهم السلام ، لأنهم مبعوثو العناية الإلهية لتغيير المجتمعات ، وتحويل وجهتها ، وإنشائها خلقاً آخر ، فى عقائدها وشعائرها وأخلاقها وأعمالها. وهكذا يقف أنبياء الله وجهاً لوجه أمام المخالفين والمعاندين ، وهـم أكثر النـاس ، ممن أضلهم الهوى أو أعماهم التقليد، أو استعبدتهم الدنيا ، أو أفسد قلوبهم الكبر والحسد .

وفى هـذا جاء الحـديث النبوى : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » .

وكلما كان قـوم الرسول أكثر إغراقاً فى الضلال كانت حاجته إلى الصبر أكثر ، مثل أُولى العزم من الرسل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، عليهم الصلاة والسلام .

ولما كانت دعوة محمد ﷺ دعوة عامة شاملة ، فهى دعوة لكل الأجناس والألوان والأوطان والطبقات ، وهى دعوة لتغيير العقائد والمفاهيم والشعائر ، والتقاليد ، والنظم ، والأوضاع - من أجل ذلك كان خصومها أكثر ، والعداء لها أكبر، وكانت حاجة مؤسسها إلى الصبر أعظم .

ولا غَرو أن نجد آيات القرآن العزيز تأمر الرسـول ﷺ بالصبر فى مواضع عـدة ، كلها - عند التحقيق - فى القرآن المكى .

وسر ذلك أن العهد المكى هو عهد الاضطهاد والفتنة ، وقلة الصبر ، وضعف الأتباع . فقد كانوا - كما وصفهم القرآن - قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس .

وقد ظل النبى ﷺ نحو عشر سنوات يدعو فلا يستجيب لدعوته إلا الواحد بعد الواحد ، ثم كان العام العاشر ففقد فيه سنده فى الداخل : خديجة زوجه ، وسنده فى الخارج : أبا طالب عمه ، فسماه عام الحزن !

وفى خلال هذه الأعوام حاربته قريش بكل صنوف الأذى ، فى نفسه وفى أصحابه ، بالقول والفعل ، باللسان واليد . . بسلاح الاستهزاء والافتراء . وسلاح الضغط العائلى ، وسلاح المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية ، وسلاح التعذيب البدنى .

ولم يقف ﷺ عند حدود قريش ، فكان يعرض دعوته على قبائل العرب كلما جاء موسم الحج ، فلم يظفر بمن يلبى نداءه . ورحل إلى ثقيف بالطائف ، فلم يجد عندهم أذناً تسمع ، ولا قلباً يعى ، ولا يداً تنبسط إلا بالأذى .

ويرجع من هذه الرحلة بجراح دامية فى قدميه مما قذفه به سفهاء الطائف من حجارة ، وبجراح أعمق غوراً فى قلبه ، مما رده به زعماؤها من أقوال هى أشد من الحجارة إيذاء ، فهذه تؤلم الأبدان ، وتلك تؤلم القلوب . ولا نجد تعبيراً عن الأسى والأسف لما حدث أبلغ من تلك المناجاة الرقيقة المؤثرة المعبرة التى ناجى بها الرسول ربه فى عودته : « اللّهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ... إلى أن يقول : «إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أُبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى » .

* * *

• أوامر اللّه لرسوله بالصبر :

من أجل هذا كثرت أوامر اللّه لرسوله بالصبر . حتى تكرَّر فى عشرين موضعاً من كتاب اللّه ، بعضها بصيغة « اصبر » وهى ثمانى عشرة ، واثنتان بصيغة « اصطبر » [1].

---

(١) وهما قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعَبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم : ٦٥) ، وقوله : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (طه : ١٣٢)

ولو أخذنا هذه الأوامر ـ بصيغة (اصبر) ـ حسب ترتيب المصحف لوجدنا هكذا:

١ ـ في الآية (١٠٩) من سورة يونس وهي ختام السورة : ﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحاكمينَ ﴾ والآية التي قبلها تمهد لهذا الأمر بأمر آخر للنبي حيث تقول :﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١) .

٢ ـ وفي سورة هود بعد أن قَصَّ الله على نبيه قصة شيخ المرسلين وأبي البشر الثاني نوح ، وما حدث له مع قومه ، ومع ابنه قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

٣ ـ وفي سورة هود أيضاً بعد أن قَصَّ الله على رسوله قصص مجموعة من رسل الله مع أقوامهم ، وما عانوه في سبيل دعوة التوحيد والإصلاح ، وبعد أن أمره الله ومن معه بالاستقامة على أمر الله ، وحذّرهم من الطغيان والركون إلى الظالمين ، وأعقب ذلك بالأمر بإقامة الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل ، جاء الأمر بالصبر ، لأنه العدة اللازمة لتنفيذ ما سبق من أوامر ، واجتناب ما ذكر من نواه : ﴿ واصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

٤ ـ وفي سورة النحل ، وفي خواتيمها يبين الله لرسوله منهج الدعوة إلى سبيل ربه من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، ثم يشير إلى دستور المعاملة مع المتصدين للدعوة والدعاة بالعدوان ، وهو معاقبة المعتدي بمثل اعتدائه دون التفكير في أكثر من المثل ، وإيثار الصبر والصفح عند المقدرة ، فهو أليق بأصحاب الدعوة . ثم يُعَقِّب على ذلك آمراً بالصبر، الذي لا يُعين عليه ، ولا يُوفَّق إليه إلا الله ، الذي لا يتخلى عن المتقين المحسنين من عباده ، ومنهم الصابرون ، وهذه هي الآيات الثلاث الأخيرة : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

---

(١) يونس : ١٠٨ (٢) هود : ٤٩

(٣) هود : ١١٥

فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

وفى قوله :﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ تشريف للصبر : حيث أضافه تعالى إلى نفسه بعد الأمر به ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٢) وإن كان كل شئ فى الوجود لا يقوم إلا به ، وكل عمل صالح لا يكون إلا له. ولكن التخصيص دليل التكريم والتشريف .

٥ ـ وفى سورة الكهف : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣).

٦ ـ وفى سورة طه :﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ (٤) .

٧ ـ وفى سورة الروم وهى آية الختام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

٨ ـ وفى سورة (ص) : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ واذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٦).

٩ـ وفى سورة غافر جاء الأمر بالصبر مرتين : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٧) .

١٠ ـ ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (٨) .

١١ـ وفى الأحقاف فى آية الختام :﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾(٩) .

---

(١) النحل : ١٢٦ ـ ١٢٨ (٢) المدثر : ٧ (٣) الكهف : ١٨
(٤) طه : ١٣٠ (٥) الروم : ٦٠ (٦) سورة ص : ١٧
(٧) غافر : ٥٥ (٨) غافر : ٧٧ (٩) الأحقاف : ٣٥

ولم يأمر الله رسوله ﷺ بالاقتداء بأسلافه من الرسل فى خُلُقٍ معين إلا فى الصبر ، تنبيهاً على عِظم منزلته ، وشدة الحاجة إليه ، ومشقته على النفس .

١٢- وفى سورة (ق) : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾(١) .

١٣- وفى سورة الطور ، وهى الآية قبل الأخيرة : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٢) .

وفى هذه الآية الوجيزة تربية وتقوية وتسلية وترضية للنبى ﷺ من عدة وجوه . فهو مأمور بالصبر لحكم ربه ، وهو سبحانه لا يحكم إلا بالحق والعدل ، وهو أحكم الحاكمين ، وخير الحاكمين .

ولطيفة أُخرى فى هذه الآية وهى قوله :﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ومن كان بعين الله وبمرأى منه وملحظ فلن يُغلب ولن يضيع .

ونظير هذا قوله تعالى لموسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ (٣) ولكن الملاحظ أن العبارة هنا جاءت بالجمع ، جمع العين (أعين) جمع ضمير المتكلم ﴿ بِأَعْيُنِناَ ﴾ وفى ذلك زيادة فى التثبيت والتأسيس .

وأمر ثالث فى هذه الآية وهو قوله :﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ وقد أعقب الأمر بالتسبيح الأمر بالصبر فى جملة آيات . ولعل السر فى ذلك أن التسبيح يعطى الإنسان شحنة روحية تحلو بها مرارة الصبر ، وينشرح بها ضيق الصدر ، وفى مثله جاء قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾(٤) .

ثم إن التسبيح بحمد الله هنا يحمل معنيين جليلين ينبغى أن يرعاهما من نزل به البلاء :

---

(١) سورة ق : ٣٩

(٢) الطور : ٤٨

(٣) طـه : ٣٩

(٤) الحجر : ٩٧ ـ ٩٩

الأول : تنزيه الله تعالى ـ وهو معنى التسبيح ـ أن يفعل شيئاً عبثاً ، أو يصدر عنه ما لا يليق بكماله وجوده وحكمته . كيف ؟ وهو البرُّ الرحيم العليم الحكيم ؟ !

فهو إذا ابتلى بعض عباده المصطفين ، فإنما ذلك لحكمة يعلمها . وإن لم يكونوا يعلمونها .

الثانى : أن له تعالى فى كل محنة منحة ، وفى كل بلية نعمة ، بل نِعماً ، ينبغى أن تُذكر فتُشكر وتحُمد ، وهذا سر اقتران التسبيح بالحمد هنا .

وفى ذكر كلمة «رب» مضافاً إلى (كاف الخطاب) ، بعد لفظ الجلالة من الإيناس والإيذان بكمال التربية والرعاية والقرب، ما يقوّى العزم ، ويُذهب الهم ، ويشرح الصدر .

١٤ـ وفى سورة القلم : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾[١] ـ يعنى يونس عليه السلام حين ترك قومه مغاضباً ـ وقبل هذه الآية بآيات جاء قوله تعالى :﴿ فَذَرْنِى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [٢].

فالنص يقول : ذرنى وإياه . يريد : كِلنى إليه . فإنى أكفيك ، أى حسبك انتقاماً منه أن تكل أمره إلى ، وتُخلى بينى وبينه . فإنى عالم بما يجب أن يُفعل به ، قادر على ذلك . ثم قال :﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ ـ أى سنستنزلهم إلى ما نريد درجة درجة ، وهم لا يعلمون ، لأنهم فى غمرة ساهون .

١٥ـ وفى سورة المعارج :﴿ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [٣] ، ووصف الصبر بالجمال من التعبيرات القرآنية فى وصف بعض المعانى بالجمال الذى كان المعتاد أنه وصف للأشياء الحسنة . فقد ذكر القرآن الصبر الجميل هنا ، وفى سورة يوسف كما تحدث عن « الصفح الجميل »[٤] ، و « الهجر الجميل » [٥] وقد نقل ابن القيم عن شيخه ـ

---

(١) القلم : ٤٨ (٢) القلم : ٤٤ ، ٤٥ (٣) المعارج : ٥ ـ ٧

(٤) فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ ، فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (الحجر : ٨٥) .

(٥) فى قوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ (المزمل : ١٠) .

شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قوله : الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه .

١٦ ـ وفى سورة المزمل : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾(١).

وهنا نجد هذه العبارة : ﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ تكررت أربع مرات فى القرآن لتدل بوضوح على أن أقوالهم الجارحة فى شأن النبى ﷺ كانت عميقة الأثـر فى نفسـه ، وكانت تؤذيه أشد الإيذاء ، مثل قولهم : مجنون ، وساحر ، ومفتر ، وقولهم عن القرآن : أساطير الأولين . وقولهم فى الله ما لا يليق بجلالـه . ولهـذا تكرر الأمر بالصبر على ما يقولون ، كما جاء فى أكثر من آية : ﴿ فَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ . . ﴾ (٢) .

١٧ ـ وفى مطلع سورة المدثر ـ وهى من أوائل ما نزل من القرآن ـ يأمر الله رسوله الكريم أن يدع لحافه ودثاره ، وينهض لدعوته ، مُبَلّغاً مُنذراً ، مُنفّذاً ما أمـر الله به ، مُجتنباً ما نهى الله عنه . وهنا يأمر القرآن بالصبر لربه ، وبهـذا يكون الصبر عدّة له فى جهاده ، وسلاحاً ماضياً فى معركته مع الجاهلية: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٣). وهـذه الجملة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ تحتمل معنيين :

أحدهما : اصبر لربك ، أى لحكمه وقضائه وبلائه . فهى كآية الطور : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (٤) ، وكذلك فى سورة الإنسان وفى سـورة القلم : ﴿ فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ (٥).

والثانى : اجعل صبرك لله تعالى ، لا لأحد غيره ، ولا لشئ سواه ، أى أخلص النية فى صبرك ، واجعله لربك وحده .

وهذا هو الراجح عندى ، وهو الذى يدل عليه تقديم الجار والمجرور . فهو يفيد الاختصاص والحصر. ذلك أن الصبر المحمود هو الذى يكون لله تعـالى

---

(١) المـزمل : ١٠ (٢) يس : ٧٦ (٣) المدثر : ١ ـ ٧
(٤) الطور : ٤٨ (٥) الانسان : ٢٤ ، القلم : ٤٨

لا للدنيا ولا للمحمدة ولا للسمعة. ولهذا أثنى الله على قوم فقال : ﴿ والَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. ﴾ (١) .

ومن الطريف هنا موازنة بعض الصوفية بين الصبر للـه والصبر بالله . فيقول الشيخ الهروى صاحب « منازل السائرين » : « أضعف الصبر الصبر لله ، وهو صبر العامة . وفوقه الصبر بالله ، وهـو صبر المريدين » .

ويرد عليه شارحـه المحقق ابن القيم فيقول : « الصواب أن الصبر للـه فوق الصبر بالله ، وأعلى درجة وأجل ، فإن الصبر لله متعلق بإلهيته ، والصبر بالله متعلق بربوبيته. وما يتعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له عبادة ، والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها .

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به . وأما الصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين وأصحاب مشهد : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) .

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له ، مرضى له . والصبر به قد يكون فى ذلك ، وقد يكون فيما هو مسخوط له ، وقد يكون فى مكروه أو مباح فأين هذا من هذا » ؟ (٣) .

١٨ ـ وأخيرا جاء الأمر بالصبر فى سورة الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّك وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ (٤) .

وهنا تجد الآية الأولى تمهيداً وتقديماً للآية الثانية التى أُمر فيها الرسول بالصبر. إذ المقصود بالأولى ـ كما ذكر الفخر الرازى فى تفسيره ـ تثبيت الرسول وشرح صدره ، فيما نسبوه إليه من كهانة وسحر ، فذكر الله تعالى أن ذلك وحى من الله ، فلا جَرَم أن بالغ وكرَّر الضمير ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ بعد إيقاعه

---

(١) الرعد : ٢٢ .
(٢) الفاتحة : ٥ .
(٣) مدارج السالكين جـ ٢ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(٤) الإنسان : ٢٣ .

اسماً لـ « إنَّ » تأكيـــداً على تأكيد أبلغ ، كأنه تعـــالى يقول : إن كان هؤلاء الكفار يقولون : إن ذلك كهانة ، فأنا اللّه الملك الحق أقول على سبيل التأكيد والمبالغة : إن ذلك وحي حق ، وتنزيل صدق من عندى .

وهذا فيه فـائدتان :

إحداهما : إزالة الغم والوحشة عن خاطره ﷺ بسبب طعن أُولئك الكفار ، فإن بعض الجهّال إن طعنوا فيه فإن جبار السموات عظَّمه وصدَّقه.

والثانية : تقوية قلبه على تحمل التكليف المستقبل .

وبعد هذه المقدمة أمره تعالى بالصبر فقال : ﴿ فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وقد سبق هذا التعبير فى سورة الطور وفى سورة القلم . ويذكر الرازى هنا : أن معنى : ﴿ فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إما أن يكون فى تأخير الإذن فى القتال (الذى كان يتعجله بعض أصحابه) أو يكون المعنى عاماً فى جميع التكاليف . أى فاصبر فى كل ما حكم به ربك ، سواء أكان ذلك تكليفاً خاصاً بك من العبادات والطاعات ، أو متعلقاً بالغير ، وهو التبليغ وأداء الرسالة ، وتحمل المشاق الناشئة من ذلك » (١) .

والتعميم عندنا هو الأرجح ، لأنه هو الأليق بالسياق ، وإن كان الذى يُفهم من كلام الرازى أن المراد بالحكم فى الآية هو الحكم الشرعى التكليفى ، وهو جزء من المعنى المراد فيما أرى ، ولكنه ليس كل المراد ، إذ لم يدخل فيه الحكم الكونى القدرى . أى ما قضاه اللّه وقدَّره وحكم به ، وجرى به قلم المقادير من محن وشدائد ومشاق ، بل لعل هذا هو المتبادر هنا أكثر من المعنى الثانى ، لارتباط الصبر فى الذهن والعادة ، بما قضاه اللّه من بلايا . فالحكم هنا هو القضاء الإلهى ، وليس الأمر والنهى والتكليف. وهو الذى جاء فى قوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكمينَ ﴾ (٢) ، وقول شعيب لقومه : ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكمِينَ ﴾(٣) .

* * *

---

(١) التفسير الكبير للرازى جـ ٣٠ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ (٢) يونس : ١٠٩

(٣) الأعراف : ٨٧

● **حكم الصبر :**

ذكر الإمام ابن القيم فى « المدارج » أن الصبر واجب بإجماع الأمة .

وهـذا صحيح فى الجملة لا فى التفصيل . ويكفى فى الدلالة على ذلك :

١ ـ أن الله أمر به فى آيات كثيرة ، وأصل الأمر إفادة الوجوب . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ . . . ﴾(١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾(٢) ، ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ . . ﴾ (٣) .

٢ ـ أنـه نهى عن ضده فى مثـل قولـه تعـالى : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ (٤) ، فإن توليـة الأدبـار ترك للصبر والمصابرة . وقولـه تعالى : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٥) فإن إبطالها تـرك للصبر على إتمامهـا . وقـوله : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا ﴾(٦) فإن الوهـن من عـدم الصبر . وقـولـه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ (٧) فإن الاستعجال من عدم الصبر.

٣ ـ أن القرآن الكريم رتّب عليه خيرى الدنيا والآخرة. فلا يفوز الإنسان بمحبوب ولا ينجو من مكـروه إلا بالصبر. وما كان كذلك ، كان تحصيله واجباً .

ومع هذا نقول : إن حكـم الصبر إنما يكون بحسب المصبور عنه أو المصبور عليه . فالصبر عن المحرمات واجب ، وتتأكد درجة وجوبه بمقدار عظم المحرّم.

أما الصبر عن المكروه ، أو عما هو خلاف الأفضل والأمثل ، فلا يصل إلى درجة الواجب : وإنما هو مستحب ، أو خير من مقابله .

مثال ذلك أن مقابلة السيئة بمثلها مشروع فى الإسلام ، وأفضل منها العفـو والصفح . ومن هنا لا يكون الصبر عن مقابلة السيئة بمثلها واجباً ، بل أمراً مندوباً إليه مرغوباً فيه . وفى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾(٨) ومثله : ﴿ وَلَمَنِ

---

(١) البقرة : ١٥٣

(٢) آل عمران : ٢٠٠

(٣) النحـل : ١٢٧

(٤) الانفال : ١٥

(٥) محمد : ٣٣

(٦) آل عمران : ١٣٩

(٧) الأحقاف : ٣٥

(٨) النحل : ١٢٦

انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمه فَأُولَئكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبيل * إنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذينَ يَظْلمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(١) .

فالصبر هنا عن المعاقبة بالمثل ، وعن الانتصار بعد الظلم إنما هو فضيلة لا فريضة ، يُحمد ويُثاب مَنْ فعلها ، ولا يُذَم ولا يُعاقَب مَنْ تركها . فليس فى القرآن ما فى الإنجيل من النهى عن مقاومة الشر بالشر والسيئة بمثلها ، وأمر من ضُرب على خده الأيمن أن يُدير للضارب خده الأيسر ، فليس هذا بمستطاع لكل الناس ، وفى كل الأحوال ، وإنما فيه الترغيب فى الصبر والصفح ودفع السيئة بالتى هى أحسن ، وهذه هى مرتبة الفضل والإحسان ، مع إجازة مقابلة السيئة بالسيئة ، والعدوان بالعدوان ، وهذه هى مرتبة العدل، والبادى أظلم ، ولكن الشرط أن يُقابَل الاعتداء بمثله ، دون زيادة أو حيف ، فى الكم أو الكيف . أما أن تكيل للمعتدى الصاع صاعين . وترد له اللطمة لطمتين ، فهذا هو العدوان الممنوع . ولهذا أكد القرآن « المثلية » فى هذا المقام دائماً بمثل قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾(٢) ، ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللّهَ ﴾ (٣) ،﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ (٤) .

ونحو ذلك ما جاء فى الصبر عن زواج الإماء المؤمنات ، وإن رخَّص القرآن فيه لمن لم يستطع الزواج من الحرائر المؤمنات فقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ .... إلى أن قال :﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) .

---

(١) الشورى : ٤١ ـ ٤٣
(٢) الشورى : ٤٠.
(٣) البقرة : ١٩٤
(٤) النحل : ١٢٦
(٥) النساء : ٢٥

ومثل ذلك يقال فيما يُصبر عليه ، فالصبر على الواجبات واجب ، وعلى المستحبات مستحب .

فالصبر على أداء الصلوات الخمس فى أوقاتها واجب مؤكد ، وفريضة لازمة . أما الصبر على قيام الليل فهو مستحب . . وهكذا .

وبعد أن كتبت هذا، قرأت فى « قوت القلوب » هذه العبارات :« إن الصبر فرض وفضل ، يُعرف ذلك بمعرفة الأحكام . فما كان أمراً أو إيجاباً فالصبر عليه أو عنه فرض ، وما كان حقاً وندباً ، فالصبر عليه أو عنه فضل» ا هـ (١).

وفصَّل ذلك الإمام الغزالى فى « الإحياء » فقال : « اعلم أن الصبر ينقسم ـ باعتبار حكمه ـ إلى فرض ونفل ، ومكروه ومحرَّم .. فالصبر عن المحظورات فرض ، وعلى المكاره نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور ، كمن تُقطع يده ، أو يد ولده ، وهو يصبر عليه ساكتاً. وكمن يقصد جريمة بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله ، فهذا الصبر محرَّم .

والصبر المكروه هوالصبر على أذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع. فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغى أن يُخيِّل إليك أن جميعه محمود ، بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة » (٢) .

فالصبر ـ إذن ـ إنما يُحمد إذا كان على بلاء لا يقدر الإنسان على إزالته ، أو التخلص منه ، فأما ما كان مقدوراً على دفعه أو رفعه فليس الصبر عليه مطلوباً فى الدين .

يقول الغزالى : « كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه . فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه ، فلا يؤمر بالصبر عليه ، بل يؤمر بإزالة الألم . وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته » (٣) .

وفى مثل هذا جاء وعيد القرآن الشديد فى شأن الذين يقيمون فى دار الشرك والحرب للاسلام ظالمى أنفسهم ، عاجزين عن إقامة فرائض دينهم ،

---

(١) قوت القلوب جـ٢ ص ١٩٩

(٢) إحياء علوم الدين جـ٤ ص ٦٩

(٣) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص ١٢٧

وهم قادرون على الهجرة إلى دار الإسلام . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (١) .

* * *

● الباعث على الصبر :

لم يكتف القرآن بالأمر بالصبر ، والثناء على أهله ، ونوط كل خير عاجل أو آجل به .

بل عنى - إلى جوار ذلك - بالباعث على الصبر ، والدافع إليه . فالصبر المحمود فى القرآن هو ما كان لله تعالى ، لا لكسب محمدة أو بطولة عند الناس .

ولهذا قال سبحانه لرسوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (٢) أى اجعل صبرك لربك لا لأحد غيره . فالصبر هنا عبادة وقربة إلى الله جل جلاله .

وأثنى القرآن على أولى الألباب الذين لهم عُقبى الدار ، فكان من أوصافهم : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ (٣) .. فلم يمدحهم لمجرد أنهم صبروا ، بل لأنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم .

وهذا النص القرآنى يشير إلى حقيقة هامة فى الأخلاق القرآنية ، وهى « صبغتها الربانية » فهى ليست أخلاقاً وضعية ولا مادية ، لا من حيث مصدرها ولا من حيث غايتها .

وإنما هى أخلاق ربانية ، سواء نظرنا إليها من جهة مصدر الإلزام بها أم من جهة الغاية الباعثة والحافزة .

---

(١) النساء : ٩٧ - ٩٩ (٢) المدثر : ٧ (٣) الرعد : ٢٢

فمصدرها هو الوحى الإلهى ، هو أمر الله تعالى ونهيه .
وغايتها ابتغاء وجه الله تعالى .

* * *

• المؤمن مأمور بالمصابرة مع الصبر :

والقرآن لم يكتف من المؤمنين بمجرد الصبر : بل طلب منهم درجة أخرى بعد الصبر ، وهى المصابرة .

فقد قال تعالى فى ختام سورة آل عمران : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وصيغة المصابرة تفيد مفاعلة من جانبين ، والمعنى هنا : مغالبة الأعداء فى الصبر. وذلك أننا إذا كنا نصبر على حقنا ، فإن المشركين يصبرون على باطلهم . فلا بد أن نغلبهم بصبرنا ، وأن يكون صبرنا آكد وأقوى .

ولهذا حكى القرآن عن المشركين استمساكهم بالصبر على ضلالهم وشركهم وتواصيهم بذلك .

ففى سورة الفرقان يتحدثون عن النبى ﷺ ساخرين : ﴿ أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ۞ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ (٢) ، وفى سورة (ص) يقول الله تعالى حاكياً عنهم : ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ (٣) .

فإذا كان هذا شأن أهل الشرك فى التنادى بالصبر على آلهتهم ، فصابروهم أيها المؤمنون وغالبوهم . بالصبر على توحيدكم وعقيدتكم ، والاستمرار فى تأييد دينكم ، والتضحية فى سبيله .

ومن ثَمَّ وصلت الآية الأمر بالصبر والمصابرة بمعنى ثالث وهو : المرابطة وهى صيغة مفاعلة مشتقة من ربط الخيول فى الجهاد .

وقد قيل فى قوله تعالى : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ أنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى ، فالصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة .
والمرابطة ـ كما قال ابن القيم (٤) :مفاعلة من الربط ، وهو الشد ، وسمى

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ .
(٢) الفرقان : ٤١ ، ٤٢
(٣) سورة ص : ٦
(٤) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٩

« المرابط » لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع . ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة الله ينتظرها : مرابط. ومنه قول النبى ﷺ : «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » (١) . .

فالصبر مع نفسك. و« المصابرة » بينك وبين عدوك . و« المرابطة » الثبات وإعداد العُدَّة . وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم منه الشيطان ، فيملكه أو يخربه ، أو يشعثه (٢) .

* * *

● الصبر المحمود ما كان فى أوانه :

والمهم فى الصبر أن يكون فى أوانه ، فإن الشئ إذا كان فى أوانه أثمر وآتى أكله ، أما إذا كان بعد فوات الأوان ، فلا قيمة له . ولا فائدة منه ، فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم منه ، وهذا ما حكاه القرآن عن صبر أهل النار .

قال تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا للَه جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَه مِنْ شَيْءٍ ، قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٣) .

فالصبر هنا لا ثمرة له ولا وزن ، لأنه صبر فى غير محله ، وبعد انتهاء أمده وزمانه .

ومن هنا أيضاً ذكر المكذِّبين الذين يُدعُّون إلى نار جهنم دَعًّا ، قائلا : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) رواه مسلم .

(٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٩

(٣) ابراهيم : ٢١

(٤) الطور : ١٤ ـ ١٦

الفصل الثانى

مجالات الصبر فى القرآن

وللصبر فى القرآن مجالات كثيرة يجمعها أحد أمرين : إما حبس النفس عما تحب ، أو حبسها على ما تكره . ولهذا الإجمال تفصيل فى كتاب الله تعالى .

١ ـ الصبر على بلاء الدنيا :

فهناك الصبر على بلاء الدنيا ونكبات الأيام . وهذا ما لا يخلو منه بَرٌّ ولا فاجر ، ولا مؤمن ولا كافر ، ولا سيد ولا مسود ، لأنه راجع إلى طبيعة الحياة ، وطبيعة الإنسان ، وما رأينا أحداً يسلم من آلام النفس ، وأسقام البدن ، وفقدان الأحبة ، وخسران المال ، وإيذاء الناس ، ومتاعب العيش ، ومفاجآت الدهر.

وهذا ما أقسم الله على وقوعه حين قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١) .

وهذا النوع من الصبر هو الذى لا يخطر ببال الكثيرين غيره ، ويمثله فى القرآن صبر أيوب على مرضه وفقد أهله ، وصبر يعقوب على فراق ولديه (يوسف وأخيه) وكيد أبنائه وكذبهم عليه .

وسنعود لتفصيل ذلك عند الحديث عن النماذج أو الشخصيات الصابرة فى القرآن .

* * *

٢ ـ الصبر عن مشتهيات النفس :

وهذا مجال آخر من مجالات الصبر ، هو الصبر عما تشتهيه النفس ، ويميل

---

(١) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

إليــه الطبع ، من متاع الدنيا وزينتها وشهواتها ، التى يسـوق إليها الهــوى ، ويزينها الشيطان .

(أ) وهنا نجد فى هذا المجال الصبر عن الاستجابة لمتاع الحياة الدنيا وزينتها إذا أقبلت على الإنسان . وتبدت له كالحسناء اللعوب ، فهذا لون جديد من الابتلاء .

إنه الابتلاء بالسَّراء لا بالضَّرَّاء ، وبالغنى لا بالفقر . وقـد قـال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ (٢) فجعل الإكرام والتنعيم ابتلاء ، كالتضييق فى الرزق سواء .

والمؤمن محتاج إلى الصبر عن ملاذ الدنيا ، فلا يطلق لنفسه العنان للجرى وراء شهواتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك فيها ، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان . .

ولهذا قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافى (جمع عافية) لا يصبر عليها إلا صدِّيق .

وقال أحدهم : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء .

ولما فُتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قال بعضهم : ابتلينا بفتنة الضَرَّاء فصبرنا ، وابتُلينا بفتنة السَرَّاء فلم نصبر .

قال الإمام الغزالى : « وإنما كان الصبر على السَرَّاء أشد ، لأنه مقرون بالقدرة ، ومن العصمة ألا تقدر . . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقـدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء . » (٣) .

ولهذا حذَّر الله عبـاده من فتنـة الأموال والأولاد والأزواج وشهوات الدنيا

---

(١) الأنبياء : ٣٥ . (٢) الفجر : ١٥ ، ١٦ .

(٣) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٧٠ .

جمعـــاء ، فى مثل قولـــه تعالـــى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَـــنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٢) ، ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِيـنَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، واللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ، لِلَّذِينَ اتَّقَوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ورِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣) ، ووصف الله هؤلاء الذين اتقوا من عباده فقال : ﴿ الصَّـــابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (٤) .

قال الغزالى : « فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية . ومعنى الصبر عليها : ألا يركن إليها ، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده ، وعسى أن يسترجع على القرب ، وألا يرسل نفسه فى الفرح بها ، ولا ينهمك فى التنعم واللّذة واللّهو واللعب ، وأن يرعى حقوق اللّه فى ماله بالإنفاق ، وفى بدنه ببذل المعونه ، وفى لسانه بالصدق ، وكذلك فى سائر ما أنعم اللّه به عليه » (٥) .

(ب) وثمت مجال آخر للصبر عن الدنيا وزينتها . إنه الصبر عن التطلع إلى دنيا الآخرين ، والاغترار بما ينعمون به من مال وبنين. وبخاصة الطغاة المغرورون منهـــم . فإن ما بأيديهم إنما ظاهـــره نعمة وباطنه نقمـــــة : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُـمْ فِى الْـخَيْرَاتِ ، بَل لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٦) ، وفى هذا خاطب اللّه رسوله بقوله: ﴿ وَلاَ تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧) .

فالمؤمن حقاً هو الذى يعتز بما آتاه اللّه من نعمة الهداية إلى الإيمان ، والتوفيق إلى الطاعة ، ويعلم أن المال ظل زائل ، وعارية مستردة ، ولايُبالى بمظاهر الأُبَّهة والزينة التى يتمتع بها أصحاب الثروة والسلطان . وهذا ما وصف

---

(١) التغابن : ١٥ (٢) المنافقون : ٩ (٣) آل عمران : ١٤ ، ١٥

(٤) آل عمران : ١٧ (٥) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٦٩ .

(٦) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ (٧) طـه : ١٣١

به القرآن أهل البصيرة من قوم موسى ، الذين خرج عليهم قارون فى زينته وفخامة موكبه ، فقال الذين يريدون الحياة الدنيا فى تمن وتحسر : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

أما موقف أهل العلم والإيمان وذوى البصيرة والصبر ، فهو ما ذكره القرآن : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾ (٢) .

(جـ) ونجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعى الشهوة ، وبخاصة الشهوة الجنسية العاتية ، التى اعترف الإسلام بقوتها ، وضعف الإنسان أمامها ، إذ شرع له النكاح ، وأباح له أن يتزوج الإماء (الجوارى) المؤمنات ، إذا لم يستطع أن يتزوج الحرائر . وقال فى ختام هذا السياق : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (٣) .

ورغم إباحة زواج الإماء المؤمنات هنا نجد القرآن يحث على الصبر عنه لما وراءه من رق الولد . فيقول : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ، وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٤) .

فالصبر هنا صبر عن الاستجابة لداعى الشهوة مع أنها مباحة ، فكيف إذا كانت محرّمة ؟

هنا يكون الصبر حتماً لازماً ، والاستعفاف فرضاً قاطعاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه ﴾ (٥) .

وخير من يمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن هو يوسف الصدِّيق عليه السلام الذى راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وغلّقت الأبواب وقالت : هيت لك. قال : معاذ الله ! وسنعرض لموقفه فيما بعد بتفصيل .

(د) وهنا نجد كذلك الصبر عن الاستجابة لداعى الغضب ، ومقابلة السيئة

---

(١) القصص : ٧٩
(٢) القصص : ٨٠ .
(٣) النساء : ٢٨
(٤) النساء : ٢٥
(٥) النور : ٣٣

بمثلها ، أو بأكثر منها ، بأن يكيل للمعتدى الصاع صاعين ، ويرد له الضربة ضربتين ، والشتمة شتمتين . وهذا هو الذى جاء فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾(١) ، وقوله : ﴿ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢) .

ويمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن خير ابنَىْ آدم الذى هدده أخوه بالقتل ، فكان رده الحاسم البين : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

* * *

٣ ـ الصبر على طاعة الله :

وهذا مجال ثالث للصبر ، وهو الصبر على طاعة الله تعالى ، والقيام بواجب العبودية له سبحانه . وفيه جاء قوله جل شأنه خطاباً لرسوله : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ ؟ (٤) ، وقوله أيضاً : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً ، نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٥) .

وقد استخدم القرآن هنا صيغة الافتعال من الصبر « اصطبر » مكان الصيغة المعتادة « اصبر » لأن الافتعال يدل على المبالغة فى الفعل ، فزيادة المبنى تدل فى العادة على زيادة المعنى . وما ذاك إلا لأن الطريق إلى طاعة الله مليئة بالمعوقات من داخل النفس ومن خارجها . وفيها يقول الشاعر الصالح :

إنى ابتليت بأربع يرميننى ... بالنبل عن قوس له توتير
إبليس والدنيا ونفسى والورى ... يا رب أنت على الخلاص قدير

---

(١) النحل : ١٢٦ .
(٢) الشورى : ٤١ ـ ٤٣ .
(٣) المائدة : ٢٨ .
(٤) مريم : ٦٥ .
(٥) طه : ١٣٢ .

وثمت معنى نفسى عميق الأغوار ، بجعل طاعة الله وعبادته صعبة على نفس الإنسان ، وقد نبّه على هذا المعنى الإمام الغزالى فى إحيائـــه فقـــال : « الصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهى الربوبية ، ولذلك قـال بعض العارفين : مـا من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهر فرعون من قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (١) ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه . ومـا من أحد إلا وهو يدّعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره،فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته واستبعاده ذلك،ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء .

فإن العبودية شاقة على النفس مطلقاً ، ثم من العبادات ما يُكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يُكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يُكره بسببهما جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال :

الأولى : قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات،وعقد العـزم على الإخـلاص والوفـاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبّه صلوات الله عليه إذ قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٢) ، ولهذا قدّم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (٣) .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كى لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعى الفتـور إلى الفـراغ ، وهـذا أيضـاً من

---

(١) النازعات : ٢٤

(٢) البينـة : ٥

(٣) هـود : ١١

شدائدالصبر ، ولعله المراد بقوله تعالى : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ (١) أى صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر إليه بعين العُجب وعن كل ما يبُطل عمله ويُحبط أثره ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٢) ، وكما قال تعالى : ﴿ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ (٣) فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل ، وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً ، وقد جمعهما الله تعالى فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾ (٤) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى والمروءة وصلة الرحم ، وكل ذلك يحتاج إلى صبر (٥) .

وأبرز من يُمثّل هذا النوع من الصبر فى القرآن : الخليل إبراهيم ، وابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وذلك حين جاء إبراهيم الوحى فى الرؤيا بذبح ابنه ، فلم يتلكأ فى طاعة الأمر ، وعرض على ابنه فلم يتردد ، وأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه ، طاعة لله تعالى ، كما سنفصل ذلك بعد.

* * *

٤ ـ الصبر على مشاق الدعوة إلى الله :

وهذا مجال رابع لخُلق الصبر فى القرآن ، وهو الصبر على مشاق الدعوة إلى الله تعالى ، وما يحف بها من متاعب وآلام ، تنوء بها الظهور ، وتضعف عن حملها الكواهل إلا من رحم الله . وذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأوهامهم وموروثاتهم ومألوفاتهم ، ويثوروا على شهوات أنفسهم ، ومعبودات آبائهم ، وعادات أقوامهم ، وامتيازات طبقاتهم ،

---

(١) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩

(٢) محمد : ٣٣

(٣) البقرة : ٢٦٤

(٤) النحل : ٩٠.

(٥) إحياء علوم الدين جـ ٤ .

وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم، ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى ، وأحـــلّ وحــرّم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعاتها بكل سلاح ، مدلين بأنهم أكثر مالاً ، وأعز نفراً ، وأقوى نفوذاً ، وأوسع سلطاناً .

فليس أمام دعاة الحق إلا أن يعتصموا باليقين ، ويتسلحوا بالصبر فى وجه القوة الضارية ، والسلطة الطاغية . فالصبر هنا ـ كما قال الإمام علىّ : سيف لا ينبو ، ومطية لا تكبو ، وضياء لا يخبو ، وكما جاء فى الحديث الصحيح : « الصبر ضياء » .

وهذا هو السر فى اقتـران التواصى بالصبر بالتواصى بالحق فى سورة العصر : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) فلا بقاء للحق بغير صبر .

وهو السر فيما ذكره الله على لسان لقمان الحكيم حيث وصى ابنه بالصبر على ما يصيبه من بلاء وأذى عقب وصيتـه له بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال الله تعالى على لسانه : ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾(٢)

كأنه يقول له : ما دمت تدعو الناس إلى الخير، وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر ، فَوَطِّن نفسك على احتمال المكاره منهم ، وتقبل الأذى من جهتهم فهم خصوم لمن يأمرهم بالمعروف، لأنه ثقيل عليهـم ، وينهاهــم عن المنكر ، لأنه محبب إليهم .

ومشاق الدعوة إلى الله تتمثل فى صور شتى ، وقد ذكر القرآن منها أنواعاً وأمثلة :

(أ) تتمثل فى إعراض الخلق عن الداعية . فليس أشق على نفس صاحب الدعوة أن يدعو بملء فيه ، ويصيح بأعلى صوته ، بشيراً ونذيراً ، فلا يجـــد إلا آذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً !

---

(١) العصر : ٢ ، ٣ .

(٢) لقمان : ١٧ .

رأينا ذلك مع نـوح عليه السلام ، حيث قـال مناجيـاً ربـــه : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ (١) .

ورأينـا ذلك مع هود عليه السلام حين قـال لـه لقومه : ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

ورأينا ذلك مع خاتم الرسل محمد ﷺ ، حيث وصف الله حال قومه معه فقال : ﴿ حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ (٣) .

ولهـــذا قـــال اللـــه لرســـوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤).

وأوضح من يمثل هذا النوع من الصبر : نوح عليه السلام ، حيث لقى من الإعراض والصد ما لم يلقه نبى بعده .

(ب) وتتمثل متاعب الدعوة فى أذى الناس بالقول أو الفعل . فليس أشد على نفس الرجل المخلص فى دعوته ، البرئ من الهوى ، المحب لخير النـاس ، من أن يمحض لهـــم النصح ، فيتهموه بما ليس فيه ، وأن يدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة فيردوه بالقوة ، ويعظهم بالحسنى ، فيستقبلوه بالسوأى ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، فيقاوموه بالتى هى أخشن ، ويدلهم على الخير ، فيقذفوه بالشر ، ويصدع فيهم بكلمة الحق ، فلا يسمع منهم إلا كلمة الباطل .

وقد لا يقف الأمر عند هذا الحد ، فكثيراً ما يمتد الطغيان إلى الأموال فينهبها ، وإلى الأبدان فيعذبها ، وإلى الحريات فيسلبها ، والحرمات فينتهكها ،

---

(١) نوح : ٥ ـ ٧
(٢) هود : ٥٣
(٣) فصلت : ١ ـ ٥
(٤) النحل : ١٢٧

بل إلى الأنفس فيقتلها، حتى الأرض التى نبتوا منها ، وشبوا عليها ، ونشأوا فى أحضانها،هم وآباؤهم وأجدادهم يُخرجون منها إخراجاً .

وهذا ما أقسم القرآن على وقوعه للداعين إلى الله ، حيث خاطب بذلك المؤمنين ليوطنوا أنفسهم على الصبر الطويل فقال : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) .

ومن هنا أمر الله رسوله أن يصبر على إيذاء قومه بمثل قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً ﴾ (٢) .

والأنبياء جميعاً يمثلون هذا النوع من الصبر . ولهذا حكى الله على لسانهم هذا القول رداً على أقوامهم : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣) .

وَعزّى الله خاتم رسله بما حدث لإخوانه من قبله فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

ومنَ أتباعِ الرسل ذكر لنا القرآن هنا مثلاً رائعاً يتجلى فى سحرة فرعون ، حين وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون . وعندها قال لهم فرعون : ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥) .

فماذا كان موقف السحرة إزاء هذا الوعيد الهادر من ملك جبار يقول للناس : أنا ربكم الأعلى ؟

لقد وقفوا بإيمانهم الجديد كالجبال الشم ، متحدين جبروت فرعون ، مستعدين لكل ما يُرغى به ويُزبد ، سائلين الله تعالى أن يُفرغ عليهم صبراً يتحملون به العذاب راضين ، ويستقبلون به المكاره مطمئنين .

---

(١) آل عمران : ١٨٦ (٢) المزمل : ١٠ . (٣) إبراهيم : ١٢
(٤) الأنعام : ٣٤ (٥) الأعراف : ١٢٣ ، ١٢٤ .

ومن هنا قالوا : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (١) .

(جـ) وتتمثل مشاق الدعوة كذلك فى صورة أخرى هى طول الطريق ، واستبطاء النصر، فقد جعل الله العاقبة للمتقين ، وكتب النصر لدعاة الحق من رسله وأتباعهم وورثتهم المؤمنين . ولكن هذا النصر لا يتحقق بين عشية وضحاها ، ولا تشرق شمسه إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة ، تزيغ لهولها الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنون ، هنالك يُبتلى المؤمنون ويُزلزلون زلزالا شديداً ، كما صوَّر القرآن الحالة النفسية للمسلمين فى غزوة الأحزاب .

وكم أكد القرآن هذه الحقيقة فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب ، فهو يخاطب المؤمنين فيقول : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ (٢) .

يقولون متى نصر الله ؟ استبطاءً له ، واستعجالاً لمجيئه ، فيجئ معه الغوث للملهوف ، والفرج للمكروب .

ويقول جل شأنه : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ، وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣) .

* * *

٥ ـ الصبر حين البأس :

ومجال آخر يذكره القرآن للصبر هو الصبرحين البأس ، أى الصبر فى الحرب حين لقاء الأعداء ، حيث يصبح الفرار كبيرة موبقة ، ويصبح الثبات فريضة لازمة . فالصبر هنا شرط أساسى للنصر ، وعنصر ضرورى للغلبة على العدو ، وقديماً قالوا : الشجاعة صبر ساعة . ومن هنا أثنى القرآن على الصابرين فى آية البر ، فقال : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ (أى الفقر) وَالضَّرَّاءِ (أى المرض) وَحِينَ الْبَأْسِ (أى الحرب) ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ١٢٥ ـ ١٢٦
(٢) البقرة : ٢١٤ .
(٣) يوسف : ١١٠ .
(٤) البقرة : ١٧٧ .

وفى سورة الأنفال وهى السورة التى نزلت بعد غزوة بدر الكبرى يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) . فوضع ستة شروط أولها : الثبات . وخامسها : الصبر ، وهما من باب واحد ، فلا ثبات بغير صبر

ويؤكد القرآن الأمر بالصبر بهذه الفاصلة التى ختمت بها الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ليغرى الأنفس به ، ويثبت القلوب عليه .

وفى نفس السورة يربط القرآن بين الصبر فى القتال والغلبة على العدو ، فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

وأعظم ما تشتد به الحاجة إلى الصبر فى الحرب عندما ينفرط العقد ، وتميل الريح ويضطرب الأمر ، وتشيع روح الهزيمة فى المقاتلين ، وتنتشر الشائعات المثبطة للهمم ، المحطمة للعزائم ، كما حدث فى غزوة أحد ، بعد أن أخلى الرماة أماكنهم فانكشف جيش المسلمين ، وانقض عليهم فرسان المشركين من الخلف ، فاضطرب الميزان ، وانتشر الذعر ، وشاعت الشائعات بأن رسول الله ﷺ قد قُتل ، فأوهن ذلك صفوف المسلمين وفت فى أعضادهم ، وزلزل روحهم المعنوية ، ففر الأكثرون وبقى الأقلون ، وهنا نزل القرآن يشيد بالذين ثبتوا وصبروا ، وينكر على الذين تولوا وأدبروا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ (٣) ولا يجعل لهم عذراً فى الفرارمن

---

(١) الأنفال : ٤٥ ـ ٤٧ .
(٢) الأنفال : ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) آل عمران : ١٤٢ ـ ١٤٣ .

المعركة ، ولو كان قد صح ما أشيع أن الرسول قد قُتل ، يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

إلى أن يقـــول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(٢)

إن خير من يمثل هذا النوع من الصبر فى القرآن : طالوت والقلة المؤمنة معه من جنوده ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، على عدد أهل بدر . ولقد عقد طالوت لجنوده امتحاناً فى بادىء الأمر ليختبر صبرهم ، فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ (٣) .

هذه القلة التى نفذت الأمر ، وأبت أن تشرب الماء وهى ظمأى إلا غرفة باليد ، هى التى نجحت فى الامتحان ، وتبين صبرها عند الشدة . وهى التى اجتازت النهر مع طالوت : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ (أى لكثرة عددهم وعدتهم) ، قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللَّهِ (أى من هؤلاء المؤمنين) كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) . طلبوا أولا أن يمنحهم الله الصبر ، لأنه سبيل النصر . ومن روعة التعبير هنا أنهم لم يسألوا الله أى قدر من الصبر ، بل سألوه أن يُفرغه عليهم إفراغاً ، أى يَصبُّه عليهم صباً ، كأنه ماء يُفرغ عليهم ليتطهروا به ويغتسلوا .

وكانت العاقبة انتصار القلة المؤمنة الصابرة على الكثرة الطاغية الكافرة : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ (٥) . .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٤ . (٢) آل عمران : ١٤٦ . (٣) البقرة : ٢٤٩ .

(٤) البقرة : ٢٤٩ - ٢٥٠ . (٥) البقرة : ٢٥١ .

٦ ـ الصبر فى مجال العلاقات الإنسانية :

وهـــذا مجال سادس من مجالات الصبر فى القرآن ، وهـــو مجال الآداب والعــلاقـات الاجتماعية بين الناس .

فالعلاقات الزوجية لا تستقيم ولا تستقر إلا بأن يكون الزوجان واقعيين يصبر كل منهما على صاحبـــه ، ويحتمل منه بعض ما لايروقـــه ، بل بعض ما يؤذيه .

فالحياة تختلط فيها الأشواك بالأزهار ، وتمتزج فيها الآلام بالملذات ، وكل إنسان فيه ما يُمدح وما يُذَم ، ومن ذا الذى تُرضَى سجاياه كلها ؟

بـــل أمر القرآن الرجال بالصبر وإن أحس أحدهم بالنفرة والكراهية فى نفسه قبَل زوجه ،مُقَدِماً العقل على العاطفة ، والانقياد للأخلاق على اتباع الهوى .

وفى هذا يقـــول القرآن فى معاملة الأزواج للنساء : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾(١) .

وجاء الحديث النبوى الشريف يؤكد هذا المعنى القرآنى إذ قال : « لا يفرك (أى يبغض)مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خُلُقاً رضى منها آخر » (رواه أحمد ومسلم).

وهذا النوع من الصبر مطلوب فى علاقة الآباء مع أبنائهم ، والأبناء مع آبائهم ، والأقارب مع أقاربهم ، والجيران مع جيرانهم ، فقد قال علماؤنا : « إن حق الجار ليس هو مجرد كف الأذى عنه ، بل احتمال الأذى منه والصبر عليه».

ويدخل فى هذا إلجام النفس بلجـــام الحلم ، وكفها عن الاستجابة لثورة الغضب ودواعى الانفعال ، والحرص على دفع السيئة بالحسنة بل التى هى أحسن ـ كما أوصى القرآن ـ فيحيل هذا السلوك الجميل العدو إلى صديق ، فيكسب إلى صفه قلباً محباً ، بدل أن يضيف إلى أعدائه واحداً .

يقـــول تعـــالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَـإِذَا الَّـــذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَـأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَـــا (أى هذه الخصلة الحميدة) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞

---

(١) النساء : ١٩ .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(١).

ويُعَدِّد القرآن أوصاف أُولى الألباب الذين يستحقون عُقبى الدار، أى الجنة ، فيقول : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلاَنِيَةً وَ يَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٢) .

إن فرق ما بين الإنسان المتحضر وغيره ، أنه يقدر على ضبط نفسه ، والتحكم فى عواطفه وانفعاله ، وتوجيه سلوكه وعلاقاته الوجهة الإنسانية التى تُرضى الأذواق الراقية والآداب الرفيعة ، ولا تجرح إحساس أحد أو تؤذيه بغير موجب .

وهذا ما يُصوِّره لناالقرآن إذ عرض علينا صورة أُولئك الجُفاة من أعراب البادية الذين جاءوا إلى حجرات أزواج النبى ـ أُمهات المؤمنين ـ ينادون بأصوات جاهرة ، وجلافة ظاهرة : اخرج إلينا يامحمد . غير مراعين ما تقتضيه اللياقة والأدب فى معاملة شخصية مثل شخصية الرسول الكريم ، لها مقامها ومشاغلها وأعباؤها. ولا غَرو أن نزل القرآن يُنَدِّد بهذا المسلك الفج الجافى ، وإن قَدَّر ظروف بداوتهم ، وأعلن العفو والمغفرة عنهم فى النهاية ، وفى هذا يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

وفى هذا المجال من مجالات الصبر يمكننا أن نُدخل صبر التلميذ مع أُستاذه ، والتزامه بما عقد من شرط ، وإن حجز عنه بعض المعلومات أو الحقائق ، لحكمة يراها ، وخصوصاً إذا صحبه على هذا الشرط ، فالمؤمنون عند شروطهم .

وفى هذا ذكر القرآن قصة موسى والعبد الصالح الذى لقيه موسى مع فتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً *

---

(١) فصلت : ٣٤ ـ ٣٦ . (٢) الرعد : ٢٢ .

(٣) الحجرات : ٤ ـ ٥ .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي ، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً .... ﴾ (١) .

فقد طلب موسى من العبد الصالح المشهور باسم الخضر ، أن يصحبه ليُعَلِّمه مما عَلَّمه الله ، فذكر له أنه لن يستطيع صبراً على متابعته ، وعلّل هذا بأمر ينبع من دافع فطرى أصيل فى الإنسان ، وهو حب الاستطلاع والرغبة فى استكشاف المجهول ، ولهذا قال لموسى : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ ؟! (٢).

ولكن موسى قَبِلَ مصاحبته مؤكداً له أنه سيصبر على ما يراه منه ، وإن لم يُحِط به خُبراً ، ولم يدرك له سراً : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ (٣) .

ولكن موسى ـ عليه السلام ـ يرى من الخضر من المواقف والتصرفات ما لا يملك معه السكوت والصبر فيعترض مرة بعد مرة ، منكراً عليه ما صنع ، مخالفاً ما وعد به من الصبر . والخضر يُذكره بذلك كلما أبدى اعتراضاً . ففى أول إنكار له قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ

---

(١) الكهف : ٦٥ ـ ٧٦ .

(٢) الكهف : ٦٨ .

(٣) الكهف : ٦٩ .

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ (١) ، وفى المرة الثانية قال : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ (٢) ؛

أما فى المرة الثالثة فكانت الفاصلة . وهنا قال العبد الصالح : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ، سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ (٣) ويأخذ فى تأويل الحوادث الثلاث ، إلى أن يقول فى نهايتها : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ (٤) .

* * *

(١) الكهف : ٧٢ .

(٢) الكهف : ٧٥ .

(٣) الكهف : ٧٨ .

(٤) الكهف : ٨٢ .

الفصل الثالث

مَنزِلَةُ الصَّبرِ والصَّابِرينَ في القُرآنِ

المتتبع للمواضع التى ذُكر فيها الصبر والصابرون فى القرآن الكريم يتضح له بجلاء لا يقبل الشك ، أن الصبر مقام من أرفع مقامات الدين ، وخُلُق من أعظم أخلاق المؤمنين ، ومنزلة من أجل منازل الصالحين ، وشعبة من أبرز شعب الإيمان ، وعروة من أوثق عرى الإسلام ، حتى إن القرآن جعله مفتاح كل خير ، وباب كل سعادة فى الدنيا والآخرة .

والدليل على ذلك عدة أمور :

أولاً ـ اقتران الصبر بالقيم الروحية العليا فى الإسلام :

إن القرآن الكريم قرن بين الصبر وبين قيم الدين العليا ، وأخلاقه المثلى ، ومثله الفضلى ، واقتران الشئ بالشئ ، أداة من أدوات القرآن الرائعة فى الدلالة على المعانى وتثبيتها . من ذلك أنه قرن الصبر :

(أ) باليقين فى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

والمراد باليقين ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين .

والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة ، إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار (٢) (يعنى باعتبار أن الإيمان يُطلق على التصديق والأعمال جميعاً ، فيكون له ركنان أحدهما يمثل المعرفة والتصديق وهو اليقين ، والآخر يمثل الحركة والعمل ، وهو الصبر . وهذا هو سر الاقتران بينهما) .

---

(١) السجدة : ٢٤ .

(٢) الإحياء جـ ٤ ص ٦٦ .

ثم إن شياطين الإنس والجن يغزون قلب الإنسان بسلاحين .

أحدهما : سلاح الشهوات لإفساد سلوكه ، فيغوى .

والثانى : سلاح الشبهات لإفساد فكـره ، فيضـل .

وعلى المؤمن أن يصد هذا الغزو ويجاهد هؤلاء الأعداء بسلاحين أمضى وأقوى ، هما :

١ ـ سلاح الصبر ، ليجاهد به الأهـواء والشهوات .

٢ ـ وسلاح اليقين ، ليجاهد به الشكوك والشبهات .

وبهذين ينتصر فى داخله الإنسان على الحيوان والشيطان .

(ب) وبالشكر ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

وقد تكررت هذه الفاصلة القرآنية أربع مرات فى أربع سور مكية [1] .

ويقول بعض المفسرين فى معنى ﴿ كُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ، أى كل مؤمن ، لأن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

ويشرح الإمام الغزالى معنى نصفيّة الصبر للإيمان ، فيذكر أن الإيمان كما يُطلق على التصديق القلبى والأعمال الناتجة عنه ، قد يُطلق باعتبار آخـر ـ على الأحوال النفسية المثمرة للأعمال . وعند ذلك ينقسم ما يلاقيه الإنسان إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى ما يضره حال «الصبر».. وبالإضافة إلى ما ينفعه حال «الشكر» ، فيكون «الشكر»أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار ، كما أن « اليقين » أحـد الشطرين بالاعتبار السابق . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : « الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر » [2]. وقد يُرفع أيضاً إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة إبراهيم : ٥ ، ولقمان : ٣١ ، وسبأ : ١٩ ، والشورى : ٣٣ .

(٢) قال الغزالى : ولما كان الصبر صبراً عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ـ قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار : « والصوم نصف الصبر » لأن كمال الصبر عن دواعى الشهوة ، ودواعى الغضب جميعاً ، فيكون الصوم بهذا ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن نفهم تقديرات الشرع . (الإحياء جـ ٤ ص ٦٦) .

وقد جمع الرسول ﷺ بين الشكر والصبر فى حديثة حين قال : « عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » [1] .

(جـ) وبالتوكل ، فى مثل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [3] .

وإنما جمع بين الصبر والتوكل ، لأن نجاح الإنسان فى تحقيق مراده يتوقف على أمرين : أمر من جانبه ، وفى وسعه ، من جهود تُبذل ، وأثقال تُحمل ، وصعاب تُذلّل ، وهذه كلها تحتاج إلى صبر .

والأمر الآخر : ما لا يملكه ، وليس فى وسعه ، مما يضمره الغيب ، وتخبئه الأقدار ، من أحداث كونية ، وظروف خارجية ، ومفاجآت غير متوقعة ولا محسوبة ، ورياح تُجرى السفن بما لا تشتهى . فهذه لا يملك المؤمن إزاءها إلا التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والثقة بتدبيره ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [4] عزيز : لا يذل من التجأ إليه . حكيم : لا يضيع من وثق بتدبيره .

(د) وبالصلاة ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [5] .

والصبر هنا يمثل دور الإرادة البشرية ، أما الصلاة فهى ـ كالتوكل ـ تمثل دور المعونة الإلهية ، ولا غنى للمؤمن عنها . ونحو ذلك قوله تعالى فى

---

(١) رواه مسلم .
(٢) النحل : ٤١ ـ ٤٢ .
(٣) العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩ .
(٤) الأنفال : ٤٩ .
(٥) البقرة : ١٥٣ .

سورة هود : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

(هـ) وبالتسبيح وبالاستغفار ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ (٣) .

(و) وبالجهاد ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ... ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) .

ومعلوم أن الجهاد هو ذروة سنام الإسلام كما فى الحديث النبوى الذى رواه الترمذى عن معاذ ، وأن احتمال مشقات الجهاد ومتاعبه ، وما فيه من بذل النفس والنفيس فى سبيل العقيدة لا يتم إلا بالصبر . فلذا جمع بينهما .

(ز) وبعمل الصالحات ، فى قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٦) .

ولا ريب أن عمل الصالحات لا يتحقق إلا بالصبر ، والصبر قبل العمل بإخلاص النية وتنقيته من شوائب الرياء ، فإنما الأعمال بالنيات ، والصبر أثناء العمل ، بإتمامه على الصورة المرادة للشرع ، الموافقة للسنة ، والصبر بعده بألا يأتى بما يبطله من العُجب والغرور ونحو ذلك من المفسدات للأعمال الصالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٧) ، وقال : ﴿ لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ (٨) .

---

(١) هود : ١١٤ ـ ١١٥ .
(٢) الطور : ٤٨ .
(٣) غافر : ٥٥ .
(٤) محمد : ٣١ .
(٥) النحل : ١١٠ .
(٦) هود : ١١ .
(٧) محمد : ٣٣
(٨) البقرة : ٢٦٤

(ح) وبالتقوى ، فى مثل قولـــه تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ (٢) ، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣).

قال فى « قوت القلوب » : « والتقوى والصبر معنيان أحدهما منوط بالآخر ، لا يتم كل واحد منهما إلا بصاحبه ، فمن كـــانت التقـــوى مقامه كان الصبر حالـــه ، فصار الصبر أفضل الأحوال ، من حيث كانت التقوى أعلى المقامات ، إذ الأتقى هـو الأكـرم عند الله ، والأكرم على الله هو الأفضل » (٤) .

(ط) وبالحق فى سورة العصر حيث قـــال تعـــالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٥) .

فجعله أحد الأركان الأربعة التى لا بد منها لنجاة الإنسان ـ كل إنسان ـ من خسران الدنيا والآخرة ، وهى الإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وإنما قرن التواصى بالصبر بالتواصى بالحق ، للدلالة على أن تكاليف الحق ثقيلة ، وأعباءه جسيمة ، وأن طريقه محفوفة بالمكاره ، مزروعة بالأشواك ، فلا بد لمن جند نفسه للحق موصياً به وداعياً إليه ، أن يوطن نفسه على الصبر فى سبيله ، فلا يُنصر حق بغير صبر ، ولا تستغنى جماعة تتواصى بالحق عن التواصى بالصبر .

ونظير هذا ما جاء فى وصية لقمان لابنه : ﴿ يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٦) . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا بد أن يجرا على صاحبهما الأذى من الخلق ، فلا غرو إن قرنت الوصية الحكيمة بينهما وبين الصبر على ما يصيب المرء ، تأكيداً للمعنى الذى ذكرناه .

---

(١) آل عمران : ١٨٦

(٢) آل عمران : ١٢٠ .

(٣) يوسف : ٩٠ .

(٤) قوت القلوب جـ١ ص ١٩٧

(٥) سورة العصر .

(٦) لقمان : ١٧

ومن تعظيم الصبر هنا : أنه كرر لفظة التواصى به ، ولم يكتف بعطفه على الحق دون إعادة صيغة التفاعل ، وذلك للتنبيه والتأكيد على مكانة الصبر ، وأهميته المستقلة بذاتها ، واستحقاقه لأن يتواصى به أصلاً لا تبعاً .

(ى) وبالرحمة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ (١) .

وقد جاء ذلك بعد قوله تعالى : ﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٢) .

فكلمة «ثم » هنا للدلالة على الترقى من درجة إلى أعلى منها . فليست « ثم » هنا للترتيب والتراخى فى الزمن ، بل فى الرتبة والدرجة . مما ينبئ بالقيمة العليا لما ذُكر بعدها . وهو يتمثل فى ثلاثة أشياء : الإيمان ، وهو بلا ريب أساس البناء ، ومحور كل خير وصلاح . والتواصى بالصبر ، وهو أساس النجاح والنجاة فى الدنيا والآخرة . ولم يكتف القرآن بطلب التحلى بالصبر ، بل طلب التواصى به ، لما ذكرناه فى سورة العصر ثم قرن به التواصى بالمرحمة ، لأن المرحمة هى المحرك لفعل الخير ، والإحسان إلى الناس ، وبخاصة أهل الضعف والحاجة ، كالرقيق واليتيم والمسكين .

ومما يلاحظه المتتبع لألفاظ القرآن أن كلمة « تواصوا » لم ترد فيه إلا أربع مرات : اثنتان فى سورة «العصر » ، ومثلهما فى سورة « البلد » . وقد كان له ـ أى الصبر ـ مرتان من هذه الأربع ، وهذا يدل على أمرين :

أولهما : فضله ومكانته وأهميته فى دين الله وحياة المؤمنين .

ثانيهما : مشقته على النفوس ، بحيث يحتاج إلى التوصية والتذكير به بين المؤمنين بعضهم وبعض . فكل فرد مؤمن عليه أن يوصى غيره بالصبر كما يقبل الوصية به منه .

* * *

(١) البلد : ١٧ .

(٢) البلد : ١١ ـ ١٨ .

ثانياً - التنويه بمكانة الصابرين وموضعهم فى أهل الإيمان :

نوّه القرآن بمكانة الصابرين ، وبَيَّن موضعهم من أهل الإيمان والتقوى . الفائزين بالجنة والناجين من النار .

(أ) ففى بيان القرآن لحقيقة البر وصفات الأبرار ، رداً على اليهود المتمسكين بالرسوم والشكليات الفارغة من روح التدين الحق ، والذين جعلوا الدين مجرد مظاهر سطحية لا تحقق براً، ولا تنشئ تقوى. ولهذا أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من جهة إلى أخرى بأمر ربهم .

هنا يرسم القرآن المعالم الأساسية للبر والتقوى - وبعبارة أخرى - للتدين الحقيقى الصادق ، لا التدين الوراثى الزائف ، فيقول فى سورة البقرة : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللَّه واليَوْمِ الآخِرِ والملائكَة والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ ، وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزكَاةَ ، والمُوفُونَ بَعْهدهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، والصَّابرينَ فِى البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾(١) .

تحدثت الآية عن بر العقيدة : من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وبر العمل من إيتاء المال على حبه ذوى القربى ومن بعدهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ... وبر الأخلاق ، فذكرت خُلُقين رئيسيين هما: الوفاء بالعهد ، وهو يشمل العهد مع الله ، والعهد مع النفس ، والعهد مع الناس . والصبر فى البأساء (الفقر والحاجة) ، والضراء (المرض والألم) ، وحين البأس (ساحات المعارك والحروب) .

وقد ميزت الآية الصبر هنا حين غيرّت إعراب « الصابرين » من حالة الرفع عطفاً على « الموفون » قبلها . إلى حالة النصب ، دلالة على الاختصاص وتنبيهاً للقارئ العارف ليقف عند هذا الوصف المتميز ، كأنه يقول : وأخص بالذكر أو المدح والثناء هنا : ﴿ الصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ ﴾

---

(١) البقـرة : ١٧٧

ثـــم يجئ ختام الآية ملاصقاً لهم ، ومتصلا بهم ﴿ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

(ب) وفى حديث القرآن عن صفات المتقين الذين أعد لـهم جنته ورضوانه فى سورة آل عمران ، يجعل اتصافهم بالصبر فى مقدمة ما تحلوا به من أخلاق بعد الإيمـــان بالله تعالى وذلك إذ يقـــول : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَـا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَـا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (١) .

(جـ) وفى بيان القرآن لأوصاف المخبتين ـ وهم أهل الخشوع والتواضع والطمأنينـــة والسكينة ـ فى سورة الحج ، يجعل الله تعـالى الصبر مـن أجمل حلاهـــم ، وأبرز مـــزايـاهم : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِى الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (٢) فقد ذكر الصبر بعد وجل القلوب من ذكر الله ، وقبل إقامة الصلاة والإنفاق مما رزق الله . فالمخبتون لهـــم وصفان نفسيان هما : الوجل والصبر ، ووصفان عمليان هما : الصلاة والإنفاق .

(د) وفى سورة الأحزاب يُعَدِّدُ الله المقامـــات الدينيـــة ، والفضائل الخُلُقية للجنسين من المسلمين والمسلمات ممن أعد لهم المغفرة والأجر العظيم . فيرينا الصبر إحدى السمات البارزة فيقــول : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَـــافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَـــدَّ اللَّـــهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْـرًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٥ ـ ١٧ .

(٢) الحج : ٣٤ ـ ٣٥ .

(٣) الأحـــزاب : ٣٥ .

ثالثاً ـ ترتيب خيرات الدنيا والآخرة على الصبر :

رتب القرآن خيرات الدنيا والآخرة على فضيلة الصبر ، فالنجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وكل خير يحرص عليه الفرد أو المجتمع ، منوط بالصبر ، من هذه الخيرات التى ذكرها القرآن :

١ ـ معية الله تعالى للصابرين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، وقد ذُكرت هذه المعية فى القرآن فى عدة مواضع :

(أ) فى سورة البقرة حيث أمر تعالى المؤمنين أن يستعينوا على أمورهم بالصبر والصلاة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) .

(ب) وفى السورة ذاتها على لسان المؤمنين من أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، ولم يشربوا منه إلا من اغترف غرفة بيده : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

(جـ) وفى سورة الأنفال حيث أمر الله المؤمنين بما يلزمهم لمواجهة العدو من شرائط النصر ، وأحدها الصبر : ﴿ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٤) .

(د) وفى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥) .

وهى معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية ، وليست معية العلم والإحاطة ، لأن هذه معية عامة لكل الخلق : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾(٦) .

---

(١) البقرة : ١٥٣ .
(٢) البقرة : ١٥٣ .
(٣) البقرة : ٢٤٩ .
(٤) الأنفال : ٤٦ .
(٥) الأنفال : ٦٥ ـ ٦٦ .
(٦) الحديد : ٤ .

٢ ـ محبة الله تعالى لهم : ﴿ وَكَأَيِّن مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾(١).

٣ ـ إطلاق البشرى لهم بما لم يجمع لغيرهم :﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢).
﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (٣) فجمع لهم بين الصلوات من الله والرحمة وبين الاهتداء . وكان عمر يقرؤها ويقول : نِعْمَ العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين . يعنى بالعدلين : الصلاة والرحمة . وبالعلاوة : الهدى . والعلاوة : ما يحمل فوق العدلين على البعير .

٤ ـ إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

٥ ـ توفيتهم أجورهم بغير حساب :﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٥) فما من قُربة ـ كما قال الإمام الغزالى ـ إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر ، وأنه نصف الصبر ، قال الله تعالى ـ أى فى الحديث القدسى ـ :« الصوم لى وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات (٦) .

٦ ـ ضمان النصرة والمدد لهم . قال تعالى : ﴿ بَلَى ، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (٨) . . وفى هذا جاء الحديث :« واعلم أن النصر مع الصبر » .

٧ ـ الحصول على درجة الإمامة فى الدين . نقل العلامة ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « بالصبر واليقين تُنال الإمامة فى الدين » . ثم تلا

---

(١) آل عمران : ١٤٦. (٢) البقرة : ١٥٥ (٣) البقرة : ١٥٧ .
(٤) النحل : ٩٦ . (٥) الزمر : ١٠ .
(٦) إحياء علوم الدين جـ ٤ ص٦٢ ط ، دارالمعرفة ببيروت .
(٧) آل عمران : ١٢٥ . (٨) الأعراف : ١٣٧

قولـه تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

وقرأ الإمام سفيان بن عيينة الآية فقال : « أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء » .

٨ ـ الثناء عليهم بأنهم أهل العزائم والرجولة : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٣) ، وفي وصية لقمان لابنه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٤) ، وفي هذا قيل : الصبر مُرٌّ ، لا يتجرعه إلا حُرٌّ .

٩ ـ حفظهم من كيد الأعداء : ﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ، إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٥) .

١٠ ـ استحقاقهم دخول الجنة ، وتسليم الملائكة عليهم . قال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ (٦) ، ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً ﴾ (٧) ، ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٨) .

١١ ـ انتفاعهم بعبر التاريخ واتعاظهم بآيات الله في الأنفس والآفاق .قال تعالى لموسى : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (٩) ، وقال بعد ذكر قصة سبأ ما صنع الله بهم جزاء كفرهم : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١٠) .

وقال تعالى في شأن السفن البحرية الضخمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلاَمِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (١١) .

* * *

---

(١) السجدة : ٢٤ (٢) آل عمران : ١٨٦ (٣) الشورى : ٤٣ (٤) لقمان : ١٧

(٥) آل عمران : ١٢٠ (٦) الإنسان : ١٢ (٧) الفرقان : ٧٥ (٨) الرعد : ٢٣ ـ ٢٤

(٩) إبراهيم : ٥ (١٠) سبأ : ١٩ (١١) الشورى : ٣٢ ـ ٣٣ .

الفصل الرابع

شخصيات صابرة ذكرها القرآن

ومن دلائل عناية القرآن بفضيلة الصبر ، وحرصه على توجيه المسلمين للتحلى بها ، وتربيتهم على ممارستها خُلُقاً وسلوكاً ، ماعرضه من خلال قصصه من شخصيات تُعَد أمثلة رائعة فى التحلى بالصبر فى ألوانه المتعددة ، ومجالاته المتنوعة .

من هذه الشخصيات أو النماذج :

● **أيــوب :**

ولعل اسم أيوب أشهر الأسماء التى تقترن بالصبر كلما ذُكرت ، حتى ضرب الناس به المثل فقالوا : صبر أيوب .

وصبر أيوب كان على ما أصابه من ضُرٍّ فى بدنه ، وعلى فقده أهله ، وإن لم يصل حد المرض الــذى أصابه إلى ما حكته الإسـرائيليات والروايات المكذوبة ، وتلقفه الخيال الشعبى فأضاف إليه وزاد فيه ، من بـدن مقـروح يتناثر منه الدود ، وجسم عليل يكاد يشبه الرِّمة البالية ، إلى غير ذلك مما يستحيل على رسل الله أن يصابوا به ، حتى لا ينفر منهم الناس الذين يدعونهم إلى الله .

يقــول تعـالــى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

ومن لطائف الأدب فى نداء أيوب لربه أنه لم يسأله شيئاً معيناً كالشفاء أو العافية ، أو إعادة الأهل إليه ، إنما اكتفى بأن ذكر نفسه بالحاجة والضعف

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ـ ٨٥

وذكر ربه بما هو أهله . ولم يزد على ذلك شيئاً : ﴿ أنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأنْتَ أرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

ويقول تعالى فى سورة (ص) مخاطباً رسوله : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أيُّوبَ إذْ نَادَى رَبَّهُ أنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ، هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِى الألْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ ، إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إنَّهُ أوَّابٌ ﴾ (٢) .

وفى هذه الآيات تكريم وأى تكريم ، وتشريف أى تشريف ، من الله تعالى لأيوب عليه السلام . حيث بـدأ القصـة بخطـاب رسولـه محمد ﷺ بقوله: ﴿ وَاذْكُرْ .. ﴾ وهذه العبارة تحمل معنى التخليد للمذكـور بعدها فى أعظم كتب الله ، وجعله موضع الاقتداء والتأسى فيما اختص به من فضيلة ، لأعظم رسل الله .

فهذه ـ كما قال أبو طالب المكى ـ كلمة مباهاة : باهى بأيوب عند رسوله المصطفى عليه السلام ، وشرفه وفضّله ، بقوله :«اذكر يا محمد... » ، فأمـره بذكره والاقتداء به كقولـه تعـالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٣) .

وشرّف الله أيوب مرة أخرى بقوله ﴿ عَبْدَنَا ﴾ فأضافه إليه إضافة تخصيص وتقريب ، ولم يدخل بينه وبينه لام الملك ، فيقول : عبداً لنا .

وشرّفه مرة ثالثة حين استجاب له نداءه ورد عليه عافيته ، ووهب له أهله ومثلهم معهم ، رحمة منه وذكرى لأولى الألباب .

ومرة رابعة حين جعل له مخرجاً من يمين حلفه على امرأته ، وهو فى مرضه تخليصاً له من مأزق الحنث ، وتكريماً له على جميل صبره .

وتّوج هذا كله بهذا التذييل الكريم بهذه العبارة الندية : ﴿ إنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِعْمَ الْعَبْدُ إنَّهُ أوَّابٌ ﴾.

---

(١) الأنبياء : ٨٣ . (٢) سورة ص : ٤١ ـ ٤٤ . (٣) الأحقاف : ٣٥ .

فهذا التذييل يحمل أسباب التشريف السابق ، وهو فى ذاته تشريف جديد ، فى كل جملة من الجمل الثلاث .. وحسبك أن يسجل الله له فضيلة الصبر بقوله : ﴿ إنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ﴾ فوصل اسمه باسمه ، ووصفه بالصبر فأظهر مكانه فى القوة والعزيمة .

ثم قال : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ وليس هناك أشرف من وصف الإنسان بالعبودية لله تعالى ، فكيف بمن قيل فيه : نعم العبد ؟ ! ثم قال : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ . والأوّاب هو المبالغ فى أوبته ورجوعه إلى الله تعالى . وقد أشرك الله معه فى هذا داوود وسليمان عليهما السلام .

* * *

• يعقوب :

وقبل أيوب عرض القرآن لنبى آخر من أهل الصبر على البلاء ، هو نبى الله يعقوب ، الذى وصفه الله ـ مع أبويه إبراهيم وإسحاق ـ بأنه من عباده : ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ (١) (أى القوة فى دين الله والبصر بدينه) .

لقد امتُحن بفراق أحب أبنائه إليه : يوسف ، ومن بعده شقيقه الأصغر ، الذى قيل إن اسمه « بنيامين » .

ولم يكن صبر يعقوب على يوسف بالأمر الهين أو الخطب اليسير ..

(أ) إذ لم يكن يوسف ابناً عادياً بالنسبة إلى أبيه .

إنه الصغير الذى ينال عادة من قلب أبيه ما لا ينال الكبير .

وإنه اليتيم الذى منحه أبوه من عاطفته ما يعوِّضه ما فقده من حب الأم .

وإنه الجميل الذى ضُربت بحسنه الأمثال ، ومن طبيعة الجمال أن يُحَب .

وإنه النابه الذى تبدو عليه مخايل للنجابة منذ نعومة أظفاره . وتوسم أبوه من رؤياه التى قصَّها عليه أنه سيكون له شأن أى شأن .

كل هذا جعل الأب يزداد تعلقاً بابنه ، فلا عجب أن يكون الابتلاء بفراقه فى هذه السن من أمَرِّ ما يذوقه الإنسان من شدائد الحياة .

---

(١) سورة ص : ٤٥ .

(ب) ولم يكن فراق يوسف كأى فراق آخر بين حبيبين يعرف كلاهما أين يقيم صاحبه ، ويرجو أن ينتهى الفراق يوماً بلقاء قريب ، وإنما كان فراقاً بعد مؤامرة ادُّعى فيها موت الصغير مقتولاً ، وانتهى إلى انقطاع كلى بين الابن وأبيه . حيث لا يعرف للابن مقر ولا مصير .

(جـ) ولم تكن هذه المؤامرة أو هذا الكيد من غرباء موتورين ، أو أعداء متربصين ، فقد يهون الكيد على النفس إذا جاء من عدو ، وإنما كان الكيد من إخوة لأخيهم ، وكان الكذب من أبناء على أبيهم ، وقد قيل : إن طعنة العدو تجرح الجسم ، أما طعنة الصديق فتجرح صميم القلب . فكيف بطعنة الأخ لأخيه ، والابن لأبيه ؟ !

ومع هذا تجمَّل يعقوب بالصبر أولاً ، وبالصبر آخراً ، وقال بعد فراق الولد الأول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١).

وقال بعد فراق الثانى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) فهو ليس صبر اليائس القنوط . إنما هو صبر الآمل الراجى فى فضل الله ، الواثق بأن بعد العسر يسراً ، وبعد الفرقة اجتماعاً : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ .

ومع وعد يعقوب بالصبر الجميل لم يلبث أن هاج فراق ولده الثانى ذكرى ولده الأول ـ والأسى يبعث الأسى ـ فثار به الشوق والحنين والحزن ، فتولى عن أبنائه وقال : ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۞ قَالُوا تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣) .

ومن رحمة الله أنه قدَّر للبشرية طبيعتها وضعفها ، فلم يَلُمْ يعقوب على ما أبداه من أسف على يوسف ، ومن حزن ابيضت منه عيناه ، ولم ينزله بذلك عن درجة ﴿ أُولِى الأَيْدِى وَالأَبْصَارِ ﴾ الذين هم عند الله المصطفون الأخيار » .

---

(١) يوسف : ١٨ . (٢) يوسف : ٨٣ . (٣) يوسف : ٨٤ ـ ٨٦ .

ومن هنا قال علماؤنا : ولا يُخرج العبد من الصبر كراهة النفس ، ولا وجدان المرارة والألم ، بل يكون مع ذلك صابراً ، لأن هذا وصف البشرية لما ينافى طبعها .

ولهذا وجدنا النبى ﷺ يقول عند موت ابنه إبراهيم : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ، ودمعت عيناه حين رأى بنت بنته تحتضر ، فرَّق لها وبكى . فلما سئل فى ذلك قال : « إن هذه رحمة ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » !

فلا غرابة فى حزن يعقوب على يوسف .

ولما لاموا يعقوب فى استمراره على ذكر يوسف رغم مضى السنوات الطوال ، على فقده ، وتأثير ذلك على صحته : قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وهنا نعلم أن الصبر الجميل الذى وعد به يعقوب ـ والنبى إذا وعد لم يخلف ـ لا ينافى الشكوى إلى الله سبحانه وتعالى : إنما ينافى الشكوى من الله تعالى ، بإظهار الجزع ، والتبرم والسخط على القضاء ، والدعاء بدعوى الجاهلية ، ونحو ذلك مما يقوله أو يفعله الجاهلون بالله العظيم .

ومثل يعقوب هنا أيوب ـ عليهما السلام ـ فقد شكا أيوب إلى ربه ما به من ضر، حين ناداه : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) ، ومع ذلك أثنى الله عليه فى كتاب الخلود بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ (٣) .

* * *

● **يوسف :**

ومن النماذج القرآنية المرموقة فى عالم الصبر والصابرين يوسف بن يعقوب عليهما السلام .

فقد كانت حياته سلسلة متلاحقة من البلاء ، دامية الحلقات ، فلا يفرغ من محنة إلا ليدخل فى محنة مثلها أو أشد منها .

---

(١) يوسف : ٨٦   (٢) الأنبياء : ٨٣ .   (٣) سورة ص : ٤٤.

فرغ من محنة إخوته وكيدهم له ، ليدخل فى محنة امرأة العزيز وكيدها العظيم ، ويفرغ من كيد امرأة العزيز ، ليواجه محنة السجن ، ويلبث فيه بضع سنين ، بـــلا جرم جناه ، أو سبب قدمته يداه .

ويفرغ من هذه ليلقى محنة السَرَّاء والعافية ، فيبتلى بالمنصب والوزارة ، ويتولى مسئولية الزراعة والمالية والتموين فى زمن أزمة طاحنة ، كادت تودى بمصر وما حولها من البلدان .

وهو إلى جوار هذه المحن كلها يعانى محنة الغُربة ، والبُعد عن الأهل والوطن والعشيرة كريه ، وخاصة مع الوحدة ، وطول الزمن ، وانقطاع الأخبار .

محن عديدة متوالية ، ولكنها لم تُلِنْ له قناة ، ولم تُحْنِ له ظهراً ، ولم تَفلح فى زحزحته عن التمسك بالصبر .

ولا عجب أن مكَّن اللّه له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، وجعله على خزائنها سيداً متصرفاً ، جزاء صبره وتقواه .

ولقد سُئل الإمام الشافعى يوماً : أيهما أفضل للمؤمن : أن يُبتلى أم أن يُمَكَّن ؟

فقال : وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء ؟ ! إن اللهّ ابتـــلى يوسف ثم مَكَّنَ له ، فقال : ﴿ وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

والحق أن مفتاح قصة يوسف ونجاحه فى حياته رغم ما اعترض من عقبات ومعوقات . تقصم فيها ظهور وتندق أعناق ـ إنما هو فى هذا التعقيب الموجز الذى حكاه القرآن على لسان يوسف نفسه ، بعد أن كشف لإخوته اللثام عن شخصيته : ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) يوسف : ٥٦ .

(٢) يوسف : ٩٠ .

إنها التقوى والصبر إذن ، ولا شئ غيرهما ، هما اللذان ارتفعا بيوسف إلى أرفع المقامات . والتقوى معنى جامع لكل خير ، والصبر معنى داخل فى كل بر ، فإذا اجتمعا لإنسان كان من المحسنين ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، النبى ابن النبى ابن النبى ابن النبى ، لم يغن عنه كرم أصله ولا عراقته فى النبوة ، إنما أغناه ونفعه التقوى والصبر .

وأى صبر ؟ إنه صبر أرفع درجة من صبر أبيه يعقوب من قبل ، وصبر أيوب من بعد .

ولا سيما صبره عن الاستجابة إلى امرأة العزيز ، برغم أن كل الظروف من حوله تيسر له طريق الإغراء ، وتدفع إليه دفعاً . ولكنه رفض بشمم ، واستعلى بإيمان ، وقال لها وقد خرجت بالتصريح عن التلميح ، بعد أن هيأت الأسباب ، وغلقت الأبواب : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ، إنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاى ، إنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

ومرة أخرى تهدده أمام مجموعة من نساء القصور ، وتقول لهن فى حنق وغيظ : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِه فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ !! (٢) .

فماذا كان موقف يوسف إزاء هذا الإغراء المهدد ، والتهديد المغرى ؟ !

لقد وجد نفسه مخيراً بين محنتين : محنة فى دينه : أن يزنى ويكون من الفاسقين .. ومحنة فى دنياه : أن يسجن ويكون من الصاغرين .

فاختار الثانية على الأولى ، وضحى بدنياه من أجل دينه ، وبحريته من أجل عقيدته ، وقال قولته المعروفة يناجى بها ربه : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ، وإلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

لقد كان صبر يوسف أرقى من صبر أبيه يعقوب على ما بلى به من فراقه ،

---

(١) يوسف : ٢٣ .
(٢) يوسف : ٣٢ .
(٣) يوسف : ٣٣ .

وأرقى من صبر أيوب على ما بُلِيَ به من ضُرٍّ جسده وفراق أهله ، لأن هذا صبر اضطرارى لا حيلة فيه ، على حين صبر يوسف صبر اختيارى .

وفى هذا المعنى ينقل المحقق ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : « كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها ، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب ، وبيعه ، وتفريقهم بينه وبين أبيه ، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره ، لا كسب له فيها ، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر .

وأما صبره عن المعصية ، فصبر اختيار ورضاه ، ومحاربة للنفس ، ولاسيما مع الأسباب التى تقوى معها دواعى الموافقة .

(ا) فإنه كان شاباً ، وداعية الشباب إليها قوية .

(ب) وعزباً ، ليس معه ما يعوضه ويرد شهوته .

(جـ) وغريباً ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منـــــه من بين أصحابه ومعارفه وأهله .

(د) ومملوكاً .. والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر .

(هـ) والمرأة جميلة وذات منصب ، وهى سيدته ، وقد غاب الرقيب ، وهى الداعية له إلى نفسها ، والحريصة على ذلك أشد الحرص .

(و) ومع ذلك توعدته ـ إن لم يفعل ـ بالسجن والصَغار .

ومع هذه الدواعى كلها صبر اختياراً وإيثاراً لما عند الله .

وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه » (١) ؟ ! أ هـ . وهو كلام جيد ، ومنطق قوى لا يحتاج إلى تعليق وتأييد .

ومما ينبغى أن يُذكر من صبر يوسف الصديق عليه السلام : موقفه عندما جاء الأمر الملكى بالإفراج عنه ، واستدعائه لمقابلة الملك بشخصه . فلم يطر لبه لهذا النبأ ، ولم يفقد ثباته ، رغم مرور السنين الطوال عليه وهو يعانى ظلم السجن

---

(١) مدارج السالكين .

وظلامه ، بل طلب ـ قبل كل شئ ـ التحقيق فيما نسب إليه زوراً وبهتاناً ، لتظهر للناس براءة ساحته ، ونصاعة صفحته ، وهذا ما حدث بالفعل ، كما تحكيه لنا آيات قصته من القرآن المجيد :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۞ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

وهكذا لم يبرح سجنه حتى ثبتت براءته ، وعادت إليه كرامته . وإزداد الملك إعجاباً به ، وتقديراً له . وكانت النتيجة ما قصه القرآن : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (٢)

فقبل التحقيق قال : ﴿ ائْتُونِى بِهِ ﴾ فحسب . أما الآن فهو يقول :﴿ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ . مما يدل على زيادة اهتمام وتكريم . ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) .

* * *

- **صبر الذبيح إسماعيل :**

وهذا نموذج رفيع من نماذج الصبر ، لأنه يمثل الصبر على طاعة الله تعالى فيما أمر مهما يكن وراءه من مخاطر وتضحيات .

هذا النموذج يتمثل فى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فقد رأى الخليل إبراهيم صلوات الله عليه فى المنام أنه يذبح ولده إسماعيل ـ ورؤيا الأنبياء وحى ـ ففهم الإشارة ، وعرف المراد ، فجاء بابنه المطلوب وعرض عليه الأمر قائلاً : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ؟ ! (٤) .

عرض فى غاية من الإيجاز والسهولة ، ولكنه يتضمن أمراً فى غاية الخطر وهو بذل الحياة والروح طاعة لله .

---

(١) يوسف : ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) يوسف : ٥٤ .
(٣) يوسف : ٥٤ .
(٤) الصافات : ١٠٢ .

ترى ماذا كان موقف الفتى وقد طلب منه تقديم عنقه للسكين ، بعد أن اشتد ساعده وصلب عوده ، ونضر شبابه ؟ !

لقد حسم الموقف بجملتين قالهما لأبيه ، خلدتاه فى سجل الأنبياء الصابرين وجعلتا منه قدوة للمؤمنين الصالحين : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١)

يا أبت افعل ما تؤمر ، أى لا تأخذ رأيى ، ولا تنتظر مشورتى ، بل نفذ ما عندك من أمر الله دون هوادة ولا إبطاء. ولهذا قال : ﴿ افعَلْ مَا تُؤمَرُ ﴾ ولم يقل « افعل بى ما تؤمر » فناء عن نفسه ، ونسياناً لذاته ، كأن الأمر لا يتعلق برقبته وإنهاء حياته .

ثم يقول : ﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) فهو لا يدعى بطولة ولا شجاعة ولا يتطاول بقدرته على التحمل ، بل يكل الأمر إلى الله ، ويستند فى صبره إلى إذنه ومشيئته ، وإنه بهذه المشيئة المعينة والموفقة ، سيدخل فى زمرة الصابرين .

وقد كان . وصدق العمل القول ، وأسلم الوالد ولده ، وأسلم الولد عنقه ، وتلّه أبوه للجبين ، وتهيأ للذبح بالسكين . وهنا كان الابتلاء قد بلغ غايته ، وحقق ثمرته . لقد نجح الوالد والولد كلاهما فى الامتحان . ونفذا ما أمر الله به دون تردد أو ارتياب . فلا غرو أن جاءت البشرى من السماء : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

وبهذا دخل إسماعيل ديوان الصابرين ، وسجل الله لـه ذلك فى كتاب

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

(٢) يلاحظ أن هذه العبارة أقوى من عبارة موسى عليه السلام : ﴿ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ (الكهف : ٦٩) ، ولعله لهذا صبر إسماعيل هنا ما لم يصبر موسى ـ عليهما السلام ـ هناك .

(٣) الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٧ .

الخلـود : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ (١) ، كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۞ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ، إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) .

لقد كان يوسف الصديق نموذجاً للصبر عن معصية الله تعالى ، وكان إسماعيل نموذجاً للصبر على طاعة الله تعالى ، فأى الصابرين أرفع مكاناً ، وخير مقاماً ؟

هنا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ يقول فيما نقله ابن القيم عنه : « الصبر على أداء الطاعات ، أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية ».

قال ابن القيم :« وله ـ رحمه الله ـ فى ذلك مصنف قرره فيه بنحو من عشرين وجهاً ، ليس هذا موضع ذكرها » (٣) .

* * *

● **صبر أولى العزم من الرسل :**

وهذه نماذج أخرى للصبر ، أحسب أنها ، فى نوعها ، أعلى من كل النماذج السابقة ، لأنها تمثل الصبر على مشاق الدعوة إلى الله . وما تكلفه أصحابها من تضحيات وأخطار . وهو صبر على تكميل الغير ، وما قبله صبر على تكميل النفس .

إنه صبر أولى العزم من الرسل ، الذين أمر الله خاتم رسله ، وصفوة خلقه ، ورحمته إلى العالمين ، محمد بن عبد الله أن يتخذ منهم أسوة فى صبرهم ، حين قال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٤) .

وقد اشتهر أن أولى العزم من الرسل هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

---

(١) قرن القرآن بين هؤلاء الثلاثة من الرسل فى هذه الآية من سورة الأنبياء ووصفهم بالصبر ، ولكن لم يعرف ما صبر عليه إدريس وذو الكفل خاصة .

(٢) الأنبياء : ٦٥ و ٨٦ .

(٣) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٧ .

(٤) الأحقـاف : ٣٥

بالإضافة إلى محمد ﷺ(١) ، وهم الذين خصهم الله بالذكر فى سورة الأحزاب بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (٢) .

كما ذكر فى سورة الشورى فى قوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٣) .

وهـــؤلاء الأربعة لقوا من العنت والأذى والبلاء أكثر مما لقيه غيرهم من المرسلين .

فنوح لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، دعاهم سراً وجهاراً ، وليلا ونهاراً ، وتبشيراً وإنذاراً ، فلم يجد إلا وقراً فى الآذان ، وغشـــاوة على الأبصار ، وختماً على القلوب ، وقد حكى هو عن نفسه ، وما بذل فى دعوة القوم ، وما قاسى من إعراضهم عنه ، فقال مناجياً ربه ، بما جـاء فـى سـورة نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ (٤). فهذا هو موقفهم ، لا يريدون أن يسمعوا له صوتاً ، ولا أن يروا له وجهاً ، فهم يضعون الأصابع فى الآذان لئلا يسمعوه ، ويستغشون ثيابهم لئلا يبصروه . إنه الإصرار العنيد ، والاستكبار الجحود .

---

(١) جرينا على القول المشهور بناء على أن « من » فى قوله : ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ « تبعيضية » . وبعضهم يضيف إلى المذكورين هنا إسماعيل ويعقوب ويوسف وأيوب الذين ذكرناهم من قبل ، وبعضهم جعل الرسل كلهم أولى عزم ما عدا آدم لقـولـه :﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (طه : ١١٥) ، ويونس لقوله : ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (القلم : ٤٨).

والقول الثانى : أن « من » فى قوله : ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ للتبين لا للتبعيض . ولم يبعث الله رسولا إلا ذا عزم . أما آدم فنفى العزم عنه فى قضية جزئية وهى الأكل من الشجرة . وقد يقال إنه لم يكن رسولا . ويونس نهى عن التشبه به فى حالة معينة : ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (القلم : ٤٨). لا فى كل الأحوال بدليل : ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (القلم : ٥٠) .

(٢) الأحزاب : ٧ (٣) الشورى :١٣. (٤) نـــوح : ٥ ـ ٧ .

ثم يقول نوح : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾(١) . إلى آخر الآيات . فلم يجد من قومه رغم تنوع الوسائل ، وتعدد الأساليب ، إلا الكنود والإعراض ، والسباب والاستهزاء ، بمثل ما جاء فى سورة هود : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ (٢) .

وما جاء فى سورة « المؤمنون » من مثل قولهم : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾(٣) .

وتمضى السنون ، وتمر القرون ، وتتوالى الأجيال ، يذهب فيها الآباء ويعقبهم الأبناء ، ويرحل الأجداد يخلفهم الأحفاد ، فى نحو ثلاثين أو أربعين جيلاً متعاقبة ، ولكن الطينة من الطينة ، والعجينة من العجينة ، مطموسون أبناء مطموسين ، فلا عجب أن دعا نوح ربه دعوته المعروفة بعدما استحكم اليأس ، وفاضت الكأس ، وطفح الكيل : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ (٤) .

وإبراهيم يصبر على دعوة أبيه . وقومه إلى التوحيد ، ويتلطف فى دعوة أبيه غاية التلطف ، ويتحمل خشونته وتهديده : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِى يَا إِبْرَاهِيمُ ، لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ، وَاهْجُرْنِى مَلِيّاً ﴾ (٥) ، فلم يسع إبراهيم إلا أن قال : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ، إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى ، عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيّاً ﴾ (٦) .

---

(١) نوح : ٨ ـ ١٢

(٢) هود : ٢٧

(٣) المؤمنون : ٢٥

(٤) نوح : ٢٦ ـ ٢٧

(٥) مريم : ٤٦

(٦) مريم : ٤٧ ـ ٤٨ .

ويستمر إبراهيم فى دعوته ، ويستمر القوم فى ضلالهم ، إلى أن كانت واقعة تحطيم الآلهة ، وتكسير الأصنام ، وعرف القوم أن إبراهيم هو فاعلها، فاجتمعت كلمتهم على أن ينتقموا لآلهتهم منه ، وأن يحرقوه بالنار ، كما حرق قلوبهم عليها . وأُوقدت النار التى تسابق القوم لإضرامها وتغذيتها بالوقود ، تقرباً للأصنام الكسيرة ، وإرضاءً للآلهة المحطمة ، التى لم تدفع عن نفسها .

وأُخِذَ إبراهيم عليه السلام وأُلقِىَ فى النـــــار ، فما جــزع ولا اضطرب ، ولا التجأ إلى غير الله ، بل كان ذكره الدائم على لسانه : « حسبى الله » .

ولم يكله الله تعالى إلى نفسه ، ولا إلى أعدائه ، ولا إلى أحد من خلقه ، بل تولى سبحانه الدفاع عنه بنفسه ، وسلب النار طبيعة الإحراق ، وقال لها : ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) وكانت كما أراد الله ، وبطل كيد أعداء الله .

وموسى وُلِدَ يوم وُلِدَ فى جو من الرعب والفزع ، فرضه فرعون على قومه ، وأوحى إلى أُمه إذا خافت عليه أن تلقيه فى اليم ، وقُدِّرَ له أن يلتقطه عدو الله وعدوه فرعون ، وأن يقع منه قتل خطأ ، فيخرج من مصر خائفاً يترقب ، ليلبث فى الغُربة عشر سنين ، بعيداً عن أهله وقومه . ثم يبعثه الله تعالى ليواجه جبروت فرعون وهامان وجنودهما . فما أن بلغ موسى رسالته لفرعون ، حتى طفق يرغى ويُزبد ويهدد ويتوعد ، ويسخر ويستهزئ . قال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

ويـرى فرعون ويسمع ما يدعو إليه موسى من توحيد الله تعالى وإبطال أُلهية مَنْ سواه وما سواه ، وهو يقول للناس : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾(٣) ، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى ﴾ (٤) فيطير صوابه ، ويتوعد موسى تارة بالسجن : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) الأنبياء : ٦٩ (٢) الشعراء : ١٨ - ١٩ (٣) النازعات : ٢٤

(٤) القصص : ٣٨ (٥) الشعراء : ٢٩

وطوراً بالقتل : قتله هو - عليه السلام - أو قتل الذين آمنوا به واتبعوه : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِى الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (١)

وقال فرعون وهامان وقارون : ﴿ اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ (٢) .

ويصبر موسى على هذا كله ، ويتوجه قومه إلى الاستعانة بالله وبالصبر حتى ينصرهم الله ويُهلك عدوهم : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) . على أن موسى عليه السلام ، قد صبر على لون آخر من البلاء ، لعل نبياً آخر لم يُمتحن بمثله ، ذلك هو الصبر على أذى قومه وإعنات أتباعه من بنى إسرائيل ، وكثرة تمردهم ، وطول عنادهم وقسوة قلوبهم ، حتى سُموا فى التوارة « الشعب الصلب الرقبة » .

وقد ذكر القرآن الكريم العديد من التصرفات السيئة لبنى إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام . منها أنهم بمجرد أن جاوزوا البحر الذى أغرق الله فيه عدوهم : ﴿ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٤)

ومنها أنهم حين قال لهم موسى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ قالوا فى مواجهته بكل وقاحة : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) غافر : ٢٦

(٢) غافر : ٢٥

(٣) الأعراف : ١٢٧ - ١٢٩

(٤) الأعراف : ١٣٨

(٥) البقرة : ٦٧

ومنها أنهم بمجرد ذهاب موسى إلى الطور لمناجاة ربه ، صنع لهم السامرى عجلاًمن الحلى ، فاتخذوه إلهاً وعبدوه ، وفيه يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُم العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (١) .

ومنها أنهم أمروا بدخول الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، وألاَّ يرتَدُّوا على أدبارهم فينقلبوا خاسرين . فلم يستجيبوا لأمر الله على لسان منقذهم ورسولهم ، وبعد أخذ ورد ، وجذب وشد ، كان غايـــة موقفهـــم أن قـــالوا : ﴿ فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٢) فلم يملك موسى إلا أن يُناجى ربه فيقول فى أسى وحزن : ﴿ رَبِّ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وأَخِى ، فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

ومنها أنهم لما أكرمهم الله فى التيه ، وظلّل عليهم الغَمام ، وأنزل عليهم المَنَّ والسلوى ، طعاماً طيباً سهلاً يأكلونه بلا جهد ولا معاناة فى صحراء قاحلة ، قالوا بكل صفاقة وتبجح : ﴿ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِها وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ ؟ (٤).

ومنها الكثير والكثير من مواقف السوء التى يضيق بها صدر الكريم ، وينفد عندها صبر الحليم . ومع هذا لم ينفد صبر موسى عليه صلوات الله وسلامه .

ولا غَرو أن وجدنا رسولنا محمداً ﷺ حين رأى وسمع بعض ما آذاه من قومه يستحضر ما أمره الله به من الاقتداء بأولى العزم فى صبرهم ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٥) ويتذكر ما عاناه أخوه موسى من قبله من الشعب الغليظ الرقبة ، فيصبر ويحتسب منوهاً بصبر كليم الله موسى عليه السلام .

---

(١) البقرة : ٥١
(٢) المائدة : ٢٤
(٣) المائدة : ٢٥
(٤) البقرة : ٦١
(٥) الأحقاف : ٣٥

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قَسَّمَ رسول الله ﷺ ذات يوم قَسماً فقال رجل من الأنصار [1] : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله ! قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : « رحمة الله على موسى ! لقد أُوذى بأكثر من هذا فصبر »[2] والحديث فى الصحيحين أيضاً .

والمسيح عيسى ابن مريم بُعِثَ إلى « خراف بنى إسرائيل الضالة » ـ كما قال عن نفسه فى الإنجيل - فواجه ما واجه أخوه موسى من قبل ، تعنّت هذا الشعب « الصلب الرقبة » ولم يجد من أحبارهم إلا التكذيب والعصيان ، والجمود على الرسوم والشكليات ، دون استعداد للترقى إلى الأفق الروحى الحقيقى ، وقد وعظهم بأبلغ المواعظ ، وضرب لهم أروع الأمثال ، فلم يلق إلا آذاناً صُمّاً ، وقلوباً غُلفاً ، فلم يجد لهم وصفاً أبلغ من أن يخاطبهم بقوله : « يا أبناء الأفاعى » !

لقد رفضوا دعوته ، وقالوا فيه وفى أمه أسخف القول وأكذبه ، وباتوا يكيدون له ، ويمكرون به ، ويتآمرون عليه ، ويُؤلبون عليه حكام الرومان ، بما أُوتوا من جهد وحيلة ودس . وكان ثمرة هذا الكيد أن تقرَّر قتله وصلبه عليه السلام ، لولا أن الله تعالى أحبط مكرهم ونجَّاه من شرهم . وقد سجل ذلك القرآن عليهم ضمن ما سجَّله فى صحيفة آثامهم ، ووثيقة اتهامهم ، فقال : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ . . . ﴾ [3]

وهكذا نجد هؤلاء الرسل العظام : شيخ المرسلين نوحاً ، وأبا الأنبياء إبراهيم ، وكليم الله موسى ، وروح الله وكلمته عيسى ، لقوا فى سبيل دعوتهم أشد العَنَت وأقسى الأذى ، وهم صابرون على المكروه ، ثابتون على

---

(١) كان من المنافقين كما فى فتح البارى .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ص٥٢١
(٣) النساء : ١٥٦ ـ ١٥٧

الحق ، لم يجزعوا ، ولم ييأسوا ، ولم يملوا ، حتى حكم الله بينهم وبين أعدائهم بالحق ، وهو خير الحاكمين . . فنجى رسله والذين آمنوا معهم وجعل خصومهم هم الأخسرين .

لقد وضع القرآن أمام الرسول ﷺ تجارب هؤلاء الرسل الكبار مع أقوامهم ، لتكون له زاداً ورصيداً . وهو يحمل دعوة ليست مقصورة على إقليم ولا شعب ولا جيل ، بل هى للناس كافة ، وإلى أن تقوم الساعة .

ومن ثَمّ أمر الرسول ﷺ أن يصبر كما صبروا ، ليظفر كما ظفروا ، وهذا ما وعاه النبى ﷺ ، ووضعه نُصب عينيه ، تحقيقاً لأمر ربه .

روى ابن أبى حاتم فى تفسيره عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ حدثها بعد صيام طويل صامه ثم قال : يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد.. يا عائشة ، إن الله لم يرض من أُولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها . والصبر عن محبوبها ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم ، فقال ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١) وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ، ولاقوة إلا بالله » (٢) .

ولقد صبر رسول الله ﷺ ، كما أمره ربه ، وكان من أُولى العزم ، بل إمامهم ، فهو سيد الصابرين والشاكرين .

* * *

(١) الأحقاف : ٣٥

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٢ ط الحلبى .

الفصل الخامس

ما يعين على الصبر في القرآن

ومع مشقة الصبر ، وصعوبته على النفس ، أشار القرآن إلى جملة أمور تعين على الصبر ، وتهوِّنه على النفس . منها :

١ ـ المعرفة بطبيعة الحياة الدنيا :

فأقرب ما يُعين الإنسان على الصبر ، وخاصة على النوائب والشدائد ـ أن يصبح تصوره للحياة التى يعيش فيها ، ويعرفها على حقيقتها ، فليست جنة نعيم ، ولا دار خلود ، إنما هى ابتلاء وتكليف ، خُلِقَ الإنسان فيها لُيصقل ويُبتلى ليُعد لحياة الخلود فى الدار الباقية . ومن عرف الحياة على هذا النحو لم يفاجأ بكوارثها ، فالشئ من معدنه لا يُستغرب .

أما من كان من الناس يتصور الحياة طريقاً مفروشاً بالأزهار والرياحين ، فإنه إذا نزل به شئ مهما قل وضؤل ، كان أشد ما يكون على نفسه ، لأنه لم يكن يتوقع شيئاً منه .

والقرآن الكريم يشير إلى أن حياة الإنسان محفوفة بالمتاعب والمشقة ، حين يقول : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾ (١) .

كما يشير إلى طبيعة الحياة ودوام تغيرها ، وأنها لا تلبث على حال ، فيوم لك ويوم عليك : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢)

لقد خلق الله الحياة الدنيا على طبيعة اختلطت فيها اللذائذ بالآلام . والمحاب بالمكاره ، فهيهات أن ترى فيها لذة لا يشوبها ألـــم ، أو صحـــة لا يكدرها سقم ،أو سروراً لا ينغصه حزن ،أو راحة لا يخالطها تعب ، أو اجتماعاً

---

(١) البلد : ٤ .
(٢) آل عمران : ١٤٠ .

لا يعقبه افتراق ، أو أماناً لا يلحقه خوف . إن هذا ينافى طبيعة الحياة ، ودور الإنسان فيها . وهذا ما أدركه الحكماء والأدباء والشعراء من قديم ، فنطقت به ألسنتهم وأقلامهم شعراً ونثراً . قيل لعليّ بن أبى طالب رضى الله عنه : صف لنا الدنيا . فقال : ماذا أصف لك من دار أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ؟ !

وما أجمل ما قال فى ذلك الشاعر العربى يصف الدنيا :

جُبِلتْ على كدر وأنت تُريدها صفواً من الآلام والأكدار !

ومُكَلِّفُ الأيام ضِدَّ طِباعها متطلب فى الماء جذوة نار !

يقول العلامة ابن القيم فى « زاد المعاد » فى بيان علاج حر المصيبة وحزنها : « ومن علاجه : أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب وليعلم أنه فى كل واد بنو سعد ، ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة ؟ وإنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى : إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه . وإن سرور الدنيا أحلام نوم أو كظل زائل . إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً ، وإن سرَّت يوماً أساءت دهراً . وإن متعت قليلاً منعت طويلاً ، وما ملأت داراً حبرة ، إلا ملأتها عبرة ، ولا سرته بيوم سرور ، إلا خبأت له يوم شرور » .

وقال ابن مسعود : « لكل فرحة ترحة ، وما ملئ بيت فرحاً ، إلا مُلئ ترحاً » .

وقال ابن سيرين : « ما كان ضحك قط ، إلا كان من بعده بكاء » .

وقالت هند بنت النُعمان بن المنذر ملك العرب : « لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم مُلكاً ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس ! وإنه حق على الله ألا يملأ داراً حبرة إلا ملأها عبرة » .

وسألها رجل أن تُحدِّثه عن أمرها ، فقالت : « أصبحنا ذات صباح وما فى العرب أحد إلا يرجونا ، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمنا » !!

وبكت أُختها حُرقة بنت النعمان بن المنذر يوماً ، وهى فى عزِّهـا ، فقيـل لها : ما يبكيك ؟ لعل أحداً آذاك ! قالـت :« لا . ولكن رأيت غضارة فى أهلى ، وقلما امتلأت دار سروراً ، إلا امتلأت حزناً ».

قال إسحاق بن طلحة : « دخلت عليها يوماً ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس . إنا نجد فى الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون فى حَبرة ، إلا سيعقبون بعدها عبرة . وإن الدهر لم يظهر بقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه ، ثم قالت :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذا نحن فيهم سوقة نتنصف !

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلَّب تارات بنا وتُصرِّف !

* * *

٢ ـ معرفة الإنسان نفسه :

وأعنى بذلك أن يعرف الإنسان أنه مِلكٌ لله تعالى أولاً وآخراً . الله هو الذى خلقه من عدم ، ومنحه الحياة والحس والحركة ، ووهب له السمع والبصر والفؤاد ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . إذا كان لديه صحة وقوة فهى من الله ، وإن كان له مال فهو من الله . وإن كان عنده ولد فهو من الله . وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (١)

فإذا نزل بالمرء نازل سلبه شيئاً مما عنده . فإنما استرد صاحـب الملك بعض ما وهب . ولا ينبغى للمودع أو المستعير أن يسخط على المالك إذا استرد يوماً من الدهر وديعته أوعاريته . وقديماً قال لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائعُ   ولا بُدَّ يوماً أن تُرَد الودائعُ

ومن ثَمَّ علَّم القرآن الصابرين الذين كتب لهم البشرى والصلوات والهداية والرحمة أن يقولوا إذا أصابتهم مصيبة : ﴿ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٢)

يقول ابن القيم (٣) : « وهذه الكلمة ، من أبلغ علاج للمصاب ، وأنفعه لـه

(١) النحل : ٥٣   (٢) البقرة : ١٥٦

(٣) زاد المعاد : جـ ٣ ص ٢٦٥ ط . السنة المحمدية .

فى عاجلته وآجلته ، فإنها متضمن أصلين عظيمين ، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته .

أحدهما : أن العبد وأهله وماله مِلْكٌ للّه عز وجل ، وقد جُعِلَ عند العبد عارية ، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ قناعه من المستعير .

وأيضاً ، فإنه محفوف بعدمين : عدم قبله ، وعدم بعده ، وملك العبد له متعة معارة فى زمن يسير . وأيضاً فإنه ليس الذى أوجده عن عدمه ، حتى يكون ملكه حقيقة ، ولا هو الذى يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يبقى عليه وجوده ، فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقى .

والثانى : أن مصير العبد ومرجعه إلى اللّه مولاه الحق ، ولابد أن يخلف الدنيا وراء ظهره ، ويجئ ربــه فـرداً ، كما خلقه أول مرة ، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة . ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بدايته ونهايته ، فكيف يفرح بموجود ، ويأسى على مفقود ؟ ! ففكره فى مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء . ا. هـ .

وأيَّدَ ذلك الحديث النبوى الذى يُعَلِّم المصاب أن يقــول أيضــاً : « إن للّه ما أخذ ، وللّه ما أعطى » .

وفى الصحيحين وغيرهما فى قصة أُم سليم مع زوجها أبى طلحة ، حين مات ابن لهما ، وأبو طلحة خارج ، فقامت الأُم إلى الصبى فَغَسَّلته وكَفَنَّتــه وحَنَطَّته (طيبته بالحنوط) وسجت عليه ثوباً ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ فقالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح ! (تعنى بالموت) وظن هو أنه استراح بالنوم لمجئ العافية ، ثم تعرَّضت له فأصاب منها ، فلما أراد أن يخرج قالت له : يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا . إن العارية مُؤداة إلى أهلها . فقالت : إن اللّه أعارنا فلاناً (وسمت ابنها) ثم أخذه منا . فاسترجع . فصَلَّى مع النبىﷺ فأخبره بما كان منهما . فقال رسول اللّه ﷺ :« لعل اللّه أن يبارك لكما فى ليلتكما » .

فقال رجل من الأنصار : فرأيت لهما (أى من ابنهما عبد اللّه) تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن .

والشاهد فى القصة ما جاء على لسان أم سليم رضى الله عنها أن الأولاد عارية من الله يمنحها لعباده حين يشاء ، ويستردها متى شاء . ولا ريب أن الإيمان بهذه الحقيقة يعين على الصبر ، ويهون على المصاب ألم المصيبة ، مادام صاحب الوديعة أو العارية قد استرجعها . إنه صاحب الفضل حين يمنح ، وصاحب الحق حين يسترد ما منح ، وخصوصاً أنه فى هذه وتلك لا يصدر إلا عن حكمة .

* * *

٣ ـ اليقين بحسن الجزاء عند الله :

فإن مما يحثُّ الإنسان على عمل ما ، ويُثَبِّته عليه ، ويُزيده رغبة فيه ، وحرصاً عليه ، أن يطمئن إلى أنه مجزيٌّ عليه جزاء مرضياً ، ومن هنا وضعت الدول والمؤسسات المكافآت التشجيعية والجوائز التقديرية للمحسنين والمتفوقين .

والقرآن يشير إلى أن الصابرين ينتظرهم أحسن الجزاء من الله تعالى ، وذلك حين يرجعون إليه ، ويقفون بين يديه ،، فيعوِّضهم عن صبرهم أكرم العوض ، ويمنحهم أعظم الأجر ، وأجزل المثوبة ، حتى ورد : « إن أهل العافية يتمنون يوم القيامة لو أن أجسامهم كانت تُقرض بالمقاريض فى الدنيا ، لما يرون من عظم ثواب الله لأهل البلاء » .

ولا نجد فى القرآن شيئاً ضخم جزاؤه ، وعظم أجره ، مثل الصبر .

فهو يتحدث عن هذا الأجر بأسلوب المدح والتفخيم فيقول :﴿ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوكلُونَ ﴾ (١) .

وهو يبين أن الصابرين إنما يُجزون أجرهم بأحسن ما عملوا ، فضلاً من الله ونعمه﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ، وَمَا عِنْدَ اللَّه بَاقٍ ، وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وأخيراً يُصَرِح بأن أجر الصابرين غير معدود بعد ، ولا محدود بحَد ، ولا محسوب بمقدار . وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ

---

(١) العنكبوت : ٥٨ ـ ٥٩ .

(٢) النحل : ٩٦ .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) قال بعض المفسرين : يُغْرف لهم غرفاً ، ويُصب عليهم صباً . هذا مع قوله تعالى فى جزاء المخلصين من عباده ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ (٢) .

وإذا كان هذا هو جزاء الصابرين عند الله ، فالواجب على المؤمن إذا أصابته مصيبة أن يتذكر هذه الحقيقة الكبيرة : أن مصيره إلى الله مهما تطل هذه الحياة ، وأن أجره عنده لن يضيع . وهذا ما وصف به القرآن الصابرين حين قال : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٣) .. فإذا قالوا : ﴿ إِنَّا لِلَّه ﴾ تذكروا بها حقيقة أنفسهم ، وأنهم مِلْكٌ لله ، وإذا قالوا : ﴿ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ تذكروا حسن الجزاء عند ربهم ، فدفعهم ذلك إلى حُسن الصبر والسلوان .

وقد جاء عن عمر قوله :« ما أُصبت ببلاء إلا كان لله عليّ فيه أربع نعم : أنه لم يكن فى دينى ، وأنه لم يكن أكبر منه وأني لم أحرم الرضا به ، وأني أرجو ثواب الله عليه ».

فكان رجاء ثواب الله على البلاء ـ فى نظر عمر ـ أحد الأسباب المُلَطِّفة له ، إلى حد نقله من دائرة المصائب التى يصبر عليها ، إلى دائرة النِعَم التى يشكر عليها .

وحدّثوا : أن امرأة فتح الموصلى ـ وكانت من الصالحات ـ عثرت فانقطع ظُفرها ، وفى هذا من الألم ما فيه . ولكنها حمدت الله وضحكت ، فقيل لها : أما تجدين الوجع ؟ فقالت : « إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه »!

إن يقين الإنسان بحسن الجزاء ، وعِظَم الأجر عند الله ، على البلية يُخفف مرارتها على النفس ، ويُهَوِّن من شدة وقعها على القلب ، وكلما قوى اليقين ، ضعف الإحساس بألم المصيبة ، حتى تنتقل لدى النفس من المكاره إلى المحاب ، كما رأينا فيما جاء عن عمر .

---

(١) الزمر : ١٠ . (٢) الصافات : ٤١ .

(٣) البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٦ .

ومن دلائل ذلك ما جاء فى الحديث من أدعية النبى صلى اللّه عليه وسلم أنه كان يقول : « اللّهم اقسم لنا من خشيتك ما تَحـول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ما تُبَـلّغنا به جنتك ، ومن اليقـين ما تُهَوِّن بـه علينـا مصائب الدنيـا » (١) .

وقال أبو طالب المكى : « وأصل قلة الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له . لأنه لو قوى يقينه ، كان الآجل من الوعد عاجلاً ، إذا كان الواعد صادقاً ، فيحسن صبـره ، لقـوة الثقة بالعطاء . ولا يصبر العبد إلا بأحد معنيين : مشاهدة العِوَض ، وهذا مقام أصحاب اليمين ، والنظر إلى المُعَوِّض ، وهو مقام المقربين » (٢) . ا هـ .

وفى قوله ﴿ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ نظر إلى العوض والمُعَوِّض جميعاً .

* * *

٤ ـ اليقين بالفرج :

مما يُعين الإنسان على الصبر : اليقين بأن نصر اللّه قريب ، وأن فرجـه آت لا ريب فيه ، وأن بعد الضيق سِعة ، وأن بعدالعسر يُسراً ، وأن ما وعد اللّه به المؤمنين من نصر ، وما وعد به المبتلين من العوض والإخلاف ، لابـد أن يتحقق .

هذا اليقين جدير بأن يُبَدِّد ظُلمة القلق مِنَ النفس ، ويطرد شبح اليأس من القلب ، وأن يُضئ الصدر بالأمل فى الظَفر ، والثقة بالغد ، وهذا كسب نفسى كبير ، فإن الأمل قوة مُحَرِّكة ، وشحنة دافعة إلى الأمام ، أما اليأس فهو داء وبيل ، بل قتّال .

إن الذى أعان يعقوب على الصبر ، أمله فى اللّه ، وثقته بالمستقبل ، وإن اللّه لن يضيع صبره وعمله . ولهذا قال بعد أخذ ولده الثانى واحتجازه فى مصر:

---

(١) رواه الترمزي وحسّنه ، والنسائى فى « اليوم والليلة » ، والحاكم ، وقال : صحيح على شرط البخارى من حديث ابن عمر . كما فى تخريج الحافظ العراقى للإحياء .

(٢) قـوت القلوب .

﴿ فَصَبْرٌ جَميلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ﴾ (١) وقال لبنيه : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

ولا عجب أن تكرر فى القرآن الأمر بالصبر مقروناً بالتذكير بأن وعد اللهَ حق ، أى لا يتخلف أبداً ، لأن الذى يُخلف وعده ، إما عاجز أو كاذب ، وتعالى الله عن ذلك ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ، لاَ يُخلفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣) .

ففى سورة الروم : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) ، وفى سورة غافر : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ (٥) .

وفيها أيضاً : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ .

ووعد الله الحق للصابرين يتمثل فى جملة أشياء :

(أ) الوعد بالسعة بعد الضيق ، وبالعافية بعد البلاء ، وبالرخاء بعد الشدة ، وباليسر بعد العُسر .

وفى هذا يقول القرآن : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ﴾ (٦) ، بل يقول فى سورة الشرح : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ (٧) فلم يجعل اليُسر بعد العُسر أو عقبه بل معه ، وذلك ليُنَبِّه على أمرين :

الأول : قُرب تحقق اليُسر بعد العُسر حتى كأنه معه ، ومتصل به ، وفى هذا قال بعض السلف : « لو دخل العُسر جحراً لتبعه اليُسر » .

الثانى : أن مع العُسر بالفعل يُسراً ، لا ريب فيه ، قد يكون ظاهراً ملموساً وقد يكون خفياً مكنوناً . وذلك ما نسميه « اللطف » ففى كل قَدَرٍ لطف ، وفى كل بلاء نعمة ، وفيه يقول ابن عطاء الله السكندرى :

---

(١) يوسف : ٨٣ .
(٢) يوسف : ٨٧ .
(٣) الزمر : ٢٠ .
(٤) الروم : ٦٠ .
(٥) غافر : ٥٥ ، ٧٧ .
(٦) الطلاق : ٧ .
(٧) الشرح : ٥ ـ ٦ .

من ظن انفكاك لطفه عن قدره ، فذلك لقصور نظره : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ (١) .

(ب) وعده بحسن العاقبة لأهل الصبر والتقوى ، مهما ازدحمت طريقهم بالأشواك ، وضُرِّجت بالدماء ، فالعبرة بالعواقب ، والمدار على الخواتيم .

وفى هذا يحكى القرآن على لسان موسى ناصحاً قومه ، بعد أن هددهم فرعون بما هددهم من التقتيل والتعذيب والتنكيل : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ويخاطب الله تعالى خاتم رسله محمد ﷺ بعد أن قَصَّ عليه قصة نوح عليه السلام مع قومه وابنه وما انتهى إليه أمرهم ، ثم يعقب على القصة بقوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

وقصص الرسل مع أقوامهم التى حفل بها القرآن ، تؤكد هذا القانون الإلهى : أن العاقبة لأهل الصبر والتقوى .

قد تكون الأيام دولاً ، والحرب سِجالاً ، ولكن النتيجة فى صالح أهل الإيمان .

بل قد تشتد المحن ، وتتفاقم الفتن ، وتُقبل الشدائد كأمواج البحر ، وتأخذ بخناق المؤمنين ، وتزيغ الأبصار ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وتظن الناس بالله الظنون (٤) ، ويُبتلى المؤمنون ويزلزلون زلزالا شديداً ، وفى هذه اللحظات يكون نصر الله أقرب ما يكون على سنة الله فى الطبيعة ، حيث نرى الرعود القاصفة ، والبروق الخاطفة ، بشير الغيث والرحمة ، ونرى أحلك سويعات الليل ظُلمة وسواداً هى التى تسبق بزوغ الفجر ، ولهذا قيل :

اشتدى أزمة تنفرجى   قد آذن ليلك بالبلج

---

(١) يوسف : ١٠٠ .   (٢) الأعراف : ١٢٨ .

(٣) هود : ٤٩ .

(٤) كما حدث للمسلمين فى غزوة الأحزاب ووصفه الله فى كتابه فى سورة الأحزاب .

وقال الآخر :

ولرُبَّ نازلـــة يضيق لها الفتى ذرعاً ، وعند الله منها المَخْرَجُ

ضاقت ، فلما استحكمت حلقاتها فُـرجت ، وكنت أظنها لا تُفْرَجُ

والقرآن يتحدث عن هذه السنة الإلهية مع رسل الله فيقول : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١) .

وقد يخيل لبعض الناس حين يرون الظالمين والطغاة يرفلون فى حُلل العافية أن قَدَرَ الله قد غفـــل عنهم ، وحاشى لله ، فإنه يُمهل ولا يُهمل . وفى الحـــديث الصحيح : « إن الله ليملى للظالـــم حتى إذا أخـــذه لم يُفلتـــه » ثـم تـلا : ﴿ وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢) .

(جـ) الوعد بحسن العـــوض عما فات ، والإخـــلاف عما فقـد ، فإن الله لا يضيع عنده أجر عامل ، ولا مثوبة محسن ، كيف وقد وعد وعداً مؤكداً أنه لا يضيع أجر المحسنين . وهذا يشمل الدنيا والآخرة جميعاً . فهو فى الدنيا يُعَوِّضهم ويُخلف عليهم خيراً مما حُرِموا ، ويُمَكِّن لهم بعد أن غُلِبوا ، وهو فى الآخرة يُؤتيهم أجورهم بغير حساب .

يقول تعالى واعداً المهاجرين فى سبيله بحسن العوض عما حُرموا من الوطن والعشيرة : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٣) .

وقد عرفنا فى قصة نبى الله أيوب عليه السلام ، كيف صبر على ما أصابه من ضُـرٍّ فى نفسه وأهله ، فانتهى به الصبر إلى أجمل العواقب ، وكشف الله عنه ضُرَّه . ووهب له أهله ومثلهم معهم ، رحمة من عنده ، وذكرى للعابدين ، وعبرة لأولى الألباب .

---

(١) يوسف : ١١٠ (٢) هود : ١٠٢ (٣) النحل : ٤١ ـ ٤٢

وهذا يؤكد لنا أن الصبر المر ، لا يُجتنى من ورائه إلا أحلى الثمرات فى الدنيا ، قبل الآخرة .

ومن هنا جاء خطاب الله تعالى لرسوله فى سورة هود إذ يقول : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّه لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) فثمرة الصبر لا تضيع فى الأولى ولا الآخرة .

ويتحدث القرآن على لسان يوسف حين كشف لإخوته عن نفسه فقالوا : ﴿ أَئِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ ، قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِى ، قَد مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)

ويُعَقِّب القرآن على موقف يوسف بعد أن استدعاه الملك واستخلصه لنفسه ، وقال له فى اعتزاز وتكريم : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) يُعَقِّب القرآن فيقول : ﴿ وكَذَلكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ ، يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ ، وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٤)

وقد نبَّهت الآية الأخيرة إلى أن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحسنيَن ﴾ إنما يُراد به ـ أولاً وبالذات ـ أجر الدنيا ، وجزاء العاجلة ، أما أجر الآخرة وثوابها فقد أفادته الآية الثانية : ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴾ .

ومن الوقائع الثابتة التى تدل على أن الله يُعَوِّض الصابرين خيراً مما فقدوا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ رضى اللّه عنها ، قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول :« ما من عبد تُصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللّهم ائجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها . إلاَّ آجره الله فى مصيبته ، وأخلف له خيراً منها » قالت : فلما توفى أبو سلمة ، قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيراً منه : رسول الله ﷺ .

* * *

---

(١) هود : ١١٥

(٢) يوسف : ٩٠ .

(٣) يوسف : ٥٤

(٤) يوسف : ٥٦ ـ ٥٧

٥ ـ الاستعانة بالله :

ومما يُعين المبتلى على الصبر أن يستعين بالله تعالى ، ويلجأ إلى حِماه ، فيشعر بمعيته سبحانه ، وأنه فى حمايته ورعايته . ومن كان فى حِمى ربه فلن يُضام .

وفى هذا يقول تعالى فى خطاب المؤمنين : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

وفى خطاب رسوله : ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢) .

ومن كان بمعية الله مصحوباً ، وكان بعين الله ملحوظاً ، فهو أهل لأن يتحمل المتاعب ويصبر على المكاره .

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم ، فالمخاوف كلهن أمان !

واصطد بها العنقاء ، فهى حبائل   واقتد بها الجوزاء ، فهى عِنان !

ولما هَّدد فرعون موسى عليه السلام وقومه ، أن يُقَتِّل أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ، مستخدماً سيف القهر والجبروت ، قال موسى لقومه : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا ﴾ (٣).

ولعل حاجة الصابرين إلى الاستعانة بالله تعالى والتوكل عليه هى بعض أسرار اقتران الصبر بالتوكل على الله فى آيات كثيرة مَرَّ بنا بعضها . مثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٤) ، وقوله على ألسنة الرسل : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٥) .

* * *

٦ ـ الاقتداء بأهل الصبر والعزائم :

ومما يُعين على الصبر : التأمل فى سِيَرِ الصابرين ، وما لاقوه من صنوف البلاء ، وألوان الشدائد ، وبخاصة أصحاب الدعوات ، وحملة الرسالات ، من

---

(١) الأنفال : ٤٦   (٢) الطور : ٤٨

(٣) الأعراف : ١٢٨   (٤) النحل : ٤٢

(٥) إبراهيم : ١٢

أنبياء الله ورسله ، المصطفين الأخيار ، الذين جعل الله من حياتهم وجهادهم دروساً بليغة لمن بعدهم ، ليتخذوا منها أسوة : ويتعزُّوا بها عما يصيبهم من متاعب الحياة وأذى الناس .

ومن هنا حرص القرآن ـ المكى خاصة ـ على ذكر قصص الأنبياء بل تكرار الكثير منها فى العديد من سوره ، تسلية للنبى ﷺ والمؤمنين معه ، وتثبيتاً لقلبه فى مواجهة أعداء دعوته ، وما أكثرهم وأعتاهم .

وفى هـذا المعنى نقـرأ فى خـواتيم سورة هود ، وقد قصَّ الله عليه فيها قصص عـدد من إخـوانه المرسلين : ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

وفى سورة الأنعام يُبَيِّن الله تعالى لرسوله أن ما يلقاه من تكذيب وإيذاء ليس بدعاً مما أصاب الرسل من قبله، يقول : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

وفى سورة إبراهيم يحكى القرآن على لسان رسل الله عليهم السلام فى الرد على قومهم : ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٣) .

ثم ذكر بعدها بعض ما أصاب الرسل من أهل الكفر والعناد ، فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

وكم رأينا من رسول دعا إلى الله وتوحيده ، فهدَّده قومه بالنفى من الوطن والإخراج من الأرض أو الرجوع إلى شركهم ووثنيتهم وضلالهم ، نقرأ هذا فى قصة شعيب بعد أن نصح لهم أبلغ النصح ، وخطبهم أروع الخُطب ، وختم خطبته

---

(١) هود : ١٢٠ .
(٢) الأنعام : ٣٤ .
(٣) إبراهيم : ١٢ .
(٤) إبراهيم : ١٣ .

بقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ (١) .

فلم يكن منهم أمام هذا القول البليغ إلا أن ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَئٍ عِلْماً ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ وأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ ﴾ (٢) .

ونقـــرأ فى قصة لوط كيف هُدِّد كذلك بالطـــرد والإبعاد ، لا لشئ إلا لأنه تَنَزَّه عن قبائحهم ، وتَطَهَّر عن القذارات التى يرتكسون فيها ، وأنكر عليهم الفاحشة التى ابتكروها ، فقالوا فى جراءة وقحة : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٣) .

وفى آخر آيـــة من سورة الأحقـــاف يجئ الخطـــاب الإلهى للرسول قائلا :﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُمْ ﴾ (٤) .

فإذا ضاق صدره يوماً بما يقولون أو يفعلون ، أو أدركه الحزن عليهم ، والضيق مما يمكرون ، وجد فى صبر إخوانه من الرسل قبله ما يشد أزره ، ويمضى عزمـه ، ويذهب همه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (٥) .

ولهذا ذكَّره الله تعالى بما أصاب عبده ورسوله أيوب عليه السلام من البلاء ، وما واجهه به من الصبر ، فقـــال تعالى :﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ... ﴾ إلى أن قال :﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٦) .

كما ذكر القـــرآن الكريـــم المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ حين اشتد بهم البـــــلاء فى مكة ، وأحدقت بهم الفتن من كل جانب ، بأنهم ليسوا بدعاً فى أتباع الرسل ، وليسوا أول من فُتن فى دينه ، وابتلى فى سبيل الله ، بل

---

(١) الأعراف : ٨٧ (٢) الأعراف : ٨٨ ـ ٨٩ (٣) النمل : ٥٦

(٤) الأحقاف : ٣٥ (٥) الأنعام : ٩٠ (٦) سورة ص : ٤١ ـ ٤٤

هـذه سنة الله فيمن قبلهم : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لايُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِين مِن قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) ،

ونحو ذلك قوله سبحانه لهم فى المدينة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّة وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(٢)

وعلى منهـــج القرآن سار النبى ﷺ فى توجيه أصحابه ، إذ ضرب لهم الأمثلة ، بما أصاب المؤمنين من قبلهم ، من ألوان البلاء وكيف غلبوه بالصبر ليكون فى ذلك لهم عزاء وسلوى ، وأسوة .

فعندما ذهب خَبَّاب بن الأرتّ يشكو إليه ضراوة ما يلقى من أذى وفتنة فى دينه هو وإخوانه من المستضعفين وقال : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ؟ ! ألا تدعو الله لنا ؟ فقال ﷺ : « قد كان من قبلكم ، يُؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض ، فيُجعـــل فيها ، ثم يُؤتى بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيُجعل نصفين ، ويُمشَّط بأمشاط الحديـــد ، ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليُتمِّن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » (٣) .

* * *

٧ ـ الإيمان بقدر الله وسننه :

ومما يُعين المرء على الصبر إيمانه بأن قَدَرَ الله نافذ لا محالة ، وأن ما أصابه لم يكن ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه . جفَّت الأقلام ، وطُويت الصحف .

إن الارتكان على الأقدار فى مثل هذا المقام أمر مشروع ومحمود ، لأنه إحالة على القَدَرِ فيما لا يَـــدٌ للإنسان فيه ولا اختيار ، من نوائب الدهر ، ونكبات الأيام . وهذا له أثره فى نفس الإنسان ، حيث يُخَفّف عنهـــا لوعة الأسى على ما فاتها ، والحزن على ما أصابها .

---

(١) العنكبوت : ٢ ـ ٣ (٢) البقرة : ٢١٤

(٣) رواه البخارى وغيره .

وفى هذا يقول القرآن : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (١) .

وإذا كانت مقادير اللّه نافذة ، رضى الإنسان أم سخط ، صبر أم جزع ، فإن العاقل ينبغى أن يصبر ويرضى ، حتى لا يُحرم المثوبة ، وإلا فإنه سينتهى رغماً عنه إلى صبر الاضطرار ، الذى ليس له قيمة خُلُقية ولا دينية « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » (٢) .

ولقد عزّى أمير المؤمنين عليّ كرّم اللّه وجهه رجلاً فى ابن له مات ، فقال : يا أبا فلان ، إنك إن صبرت نَفَذَت فيك المقادير ، ولك الأجر ، وإن جزعت نَفَذَت فيك المقادير ، وعليك الوزر .

وقال الأشعث بن قيس : « إن أنت صبرت إيماناً واحتساباً ، وإلا سلوت سلو البهائم » !

وقال حكيم : « العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ، ما يفعله الجاهل بعد أيام ».

ومما يندرج فى هذا المعنى أن يعلم أن الجزع والهلع والضيق والتبرم لا تُرَدّ ما فات . ولا تحيى ما مات ، ولا تُغَيرّ من قوانين اللّه فى كونه ، وسننه فى خلقه ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (٣) .

وإن التسليم بالواقع هو مقتضى العقل والدين معاً ، وإلا فليفعل ما يشاء من إظهار الكآبة والهلع ، والمبالغة فى التوجع والتشكى ، فهل يُغَيّرُ هذا من الواقع شيئاً ؟ وهل يُبَدّل سنن اللّه فى الكون ؟ بالقطع لا . وإنما يزيد النفس كمداً وغماً .

وإلى هذا المعنى يُشير القرآن فى خطابه للرسولﷺ حين آذاه موقف قريش منه بتكذيب المشركين له ، وقولهم فيه ما يُحرج النفس ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لاَيُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ

---

(١) الحديد : ٢٢ ـ ٢٣ (٢) رواه البخارى .
(٣) فـاطر : ٤٣ .

كذبت رُسُلٌ مِنْ قَبْلِك فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

فانظر إلى الآية الأولي كيف أزالت الوَحشة والحُزن عن قلب النبى ﷺ حين ذكرت له أن تكذيبهم ليس لشخصه ، وإنما هو جحود وتكذيب لربه سبحانه . ثم عَزَّاه الله وواساه ببيان سُنة الرسل من قبله ، فكلهم قُوبلت دعوتهم بالتكذيب وأشخاصهم بالإيذاء ، على ما كُذبوا وأُوذوا ، ولم يجزعوا أو ييأسوا ، حتى جاءهم نصر الله فى النهاية ، وهذه سُنة الله لاتبديل لها. فاصبر ـ يا محمد ـ كما صبروا ، تظفر كما ظفروا .

وإن شَقَّ على نفسك إعراضهم عنك ، وذهبت نفسك عليهم حسرات ، وضاق صدرك بما يطلبون من آيات ، فليس لك إلا الصبر ، وإلا فافعل ما بدا لك ، فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض تهرب منه ،أو سُلماً فى السماء تصعد عليه ، فدونك فافعل .

ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة الحج فيمن يئس من نصر الله ، وقنط من رحمة الله وضاق ذرعاً وحرج صدراً : ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (٢) .

ولهذا قيل : الصبر حيلة مَنْ لا حيلة له ، لأن الأمر إذا كان بيد غيرك ، لم يكن لك إلا الصبر عليه ، ولأن الشئ إذا كان لا يأتيك إلا قليلاً قليلاً ، وأنت محتاج إليه ، لم يكن لك إلا الصبر عليه ، وإلا انقطع ذلك القليل .

* * *

٨ ـ الحذر من الآفات العائقة عن الصبر :

ولا بد للإنسان عامة ، وللمؤمنين خاصة ، ولحملة الدعوات على وجه أخص ، إذا أرادوا أن يعتصموا بالصبر ، أن يحذروا من الآفات النفسية ، التى تعوقه وتعترض طريقه . من هذه الآفات التى أشار إليها القرآن :

---

(١) الأنعام : ٣٣ ـ ٣٥ (٢) الحج : ١٥ .

(أ) الاستعجال : فالنفس مولعة بحب العاجل ، والإنسان عجول بطبعه حتى جعل القرآن العَجَلَ كأنه المادة التى خُلِقَ الإنسان منها : ﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ (١) فإذا أبطأ على الإنسان ما يريده نفد صبره ، وضاق صدره ، ناسيا أن للّه فى خلقه سنناً لا تتبدل ، وأن لكل شئ أجلا مسمى ، وأن اللّه لا يَعْجَل بَعَجَلَة أحد من الناس ، ولكل ثمرة أوان تنضج فيه ، فيحسن عندئذ قطافها ، والاستعجال لا يُنضجها قبل وقتها ، فهو لا يملك ذلك ، وهى لا تملكه ، ولا الشجرة التى تحملها ، إنها خاضعة للقوانين الكونية التى تحكمها ، وتجرى عليها بحساب ومقدار .

ولهذا خاطب اللّه رسوله بقوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَهُمْ ﴾ (٢) أى لا تستعجل للكفار العذاب ، فإن لهم يوماً موعوداً .

وقد كان المشركون لجهلهم وسفههم ، يستعجلون عذاب اللّه ، غروراً منهم وعناداً ، فيرد اللّه عليهم بما يُسكتهم ويُبَكِّتُهم ﴿ وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (٤) .

(ب) الغضب : فقد يستفز الغضب صاحب الدعوة ، إذا ما رأى إعراض المدعوين عنه ، ونفورهم من دعوته ، فيدفعه الغضب إلى ما لا يليق به من اليأس منهم ، أو النأى عنهم . مع أن الواجب على الداعية أن يصبر على من يدعوهم ، ويعاود عرض دعوته عليهم مرة بعد مرة . وعسى أن يتفتح له قلب واحد يوماً ، تشرق عليه أنوار الهداية ، فيكون خيراً له مما طلعت عليه الشمس وغربت .

وفى هذا يقول اللّه لرسوله : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ

---

(١) الأنبياء : ٣٧
(٢) الأحقاف : ٣٥
(٣) العنكبوت : ٥٣
(٤) الحج : ٤٧ .

الحُوت إذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

وصاحب الحوت المذكور هنا هو يونس عليه السلام ، وقد لقب فى سورة « الأنبياء »أيضاً « ذا النون » ، وإنما أضيف إلى النون أو الحوت ، لأنه التقمه ثم نبذه . وقد أُشير إلى قصته فى « الأنبياء » وفُصِّلت بعض التفصيل فى « الصافات » .

وخلاصتها : أنه أُرسل إلى أهل قرية عرفت باسم « نينوى » بالعراق ، فدعاهم إلى توحيد اللّه ، فأعرضوا ونأوا بميامنهم عنه ، ولم يجد من يستجيب لدعوته منهم ، فسرعان ما فرغ صبره ، وضاق صدره ، فغادرهم ثائراً مغاضباً قبل أن يأذن اللّه له ، ظناً منه أن أرض اللّه واسعة ، ولن يُضَيِّق اللّه عليه ، فإن يكفر به هؤلاء ، فقد يجد فى غيرهم المؤمنين الصالحين .

واندفع وراء غضبه على القوم ، حتى انتهى إلى شاطئ البحر . فوجد سفينة مشحونة مملوءة بالركاب . فركب فيها ، حتى إذا كانت فى عرض البحر ثقلت وأوشكت أن تغرق ، فاقترح رُبَّانها إلقاء واحد من ركابها فى البحر ، لتخف وينجو الباقى ، فساهموا ـ أى اقترعوا ـ على ذلك ، فكانت القُرعة على يونس ، وأُلقى فى البحر ، ليلتقمه حوت عظيم ، لبث فى بطنه أياماً لا يعلمها إلا اللّه . وفى هذا الكرب والضيق والظلمات المتراكمة : ظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، نادى يونس ربه : ﴿ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) فاستجاب اللّه له ونَجَّاه من الغم . فلفظه الحوت على الساحل ، ونُبِذَ بالعراء وهو سقيم ، وأنبت اللّه عليه شجرة من يقطين . وأرسله إلى قوم آخرين ، فآمنوا فمتعهم اللّه إلى حين .

والشاهد هنا : أن اللّه يُحَذِّر خاتم رسله محمد صلى اللّه عليه وسلم من

---

(١) القلم : ٤٨ ـ ٥٠ .

(٢) الأنبياء : ٨٧

الاستجابة إلى داعى الغضب ، الذى قاد يونس إلى ما قصّه اللّه عليه ، وجَرّ عليه من البلاء ما جَرّ ، وإنما عليه أن يصبر لحكم ربه ، ويثبت على دعوته ، ويتحمل أعباء رسالته ، ولا يندفع وراء انفعالاته ، وإنما ينتظر أمر مولاه ، ويترقب فى النهاية نصر ربه .

(جـ) شدة الحزن والضيق مما يمكرون . فليس أشد على نفس المرء المخلص لدعوته من الإعراض عنه ، والاستعصاء عليه . فضلاً عن المكر به ، والإيـذاء لـه ، والافتراء عليه ، والافتنان فى إعناته ، وفى هذا يقول اللّه لرسوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) ، ثم يؤنسه بأنه فى معيته سبحانه ورعـايتـه فيقول : ﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (٢) .

ولقد بلغ الضيق والحزن بالنبى ﷺ من إعراض القوم وتعنتهم وافترائهم مبلغاً جعل القرآن يخاطبه فى لهجة حاسمة ، فيقول : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (٣).

وفى مواضع أخر يقول ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (٥) ، ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ، إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (٦) .

وفى مقام آخر يقول فى أسلوب صارم : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِى نَفَقاً فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) النحل : ١٢٧ — (٢) النحل : ١٢٨

(٣) هـود : ١٢ — (٤) الشعراء : ٣

(٥) الكهف : ٦ — (٦) فـاطر : ٨

(٧) الأنعـام : ٣٥ .

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ ! (١) .

فالإيمان والكفر والهدى والضلال ، كلها واقعة فى الوجود بمشيئة الله تعالى لهذا الكون ، وأجرى بها أقداره ، فينبغى مراعاة هذه السُنن لا مغالبتها فإنها غَلَّابة وهذا كله تعليم للدعاة الى الله وتنبيه لهم إلى أن تقوم الساعة .

(د) اليأس : فهو من أعظم عوائق الصبر ، فإن اليائس لا صبر له ، لأن الذى يدفع الزارع إلى معاناه مشقة الزرع وسقيه وتعهده ، هو أمله فى الحصاد ، فإذا غلب اليأس على قلبه ، وأطفأ شعاع أمله ، لم يبق له صبر على استمرار العمل فى أرضه وزرعه .وهكذا كل عامل فى ميدان عمله ، وصاحب الدعوة والرسالة كذلك .

ولهذا حرص القرآن على أن يدفع الوهم عن أنفس المؤمنين فبذر الأمل فى صدورهم : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) ، ﴿ فلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٣) .

ولما أمر موسى قومه بالصبر إزاء طغيان فرعون وتهديده ، أضاء أمامهم شعلة الأمل ، فقال : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ واصْبِرُوا ، إِنَّ الأَرْضَ لِلَّه يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) يونس : ٩٩ — (٢) آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٣) محمد : ٣٥ — (٤) الأعراف : ١٢٨ ـ ١٢٩

ولما شكا خَبّاب بن الأرت إلى النبى ﷺ ما يلقى من أذى المشركين ، شكوى تحمل معنى الضيق والتبرم ، ضرب له النبى ﷺ مثلاً بما لقيه المؤمنون فى الأزمنة الماضية ، ثم طرد عن قلبه اليأس ، وزرع فيه الأمل الخصب ، حين أخبره أن الله سيُتم هذا الأمر حتى يسير الراكب من أقصى الجـــزيرة إلى أقصاها ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه !!

وما ذلك إلا لأن الأمل أكبر معوان على الصبر على طول الطريق ، ومشقاته ، وأن اليأس من أعظم المعوقات عن الصبر .

* * *

وفى الختام : نسألك اللّهم أن ترزقنا الصبر على طاعتك ، والصبر عن معصيتك ، والصبر على أقدارك ، والصبر على أذى خلقك ، والصبر على مشاق الدعوة اليك ، حتى نكون من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

واجعلنا اللّهم من الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، والصابرين فى السرَّاء والعافية ، واجعل صبرنا فيك ولك ، حتى نكون من الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وكانوا أهلاً لجنات عدن ﴿ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالملائكةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [١] .

* * *

(١) الرعد : ٢٣ - ٢٤

محتويات الكتاب

الصفحة

الفصل الثالث : منزلة الصبر والصابرين فى القرآن
(٥٢-٦٢)

الفصل الرابع : شخصيات صابرة ذكرها القرآن
(٦٣-٨٠)

الفصل الخامس : مايعين على الصبر فى القرآن
(٨١ - ١٠٢)

* * *

رقم الايداع بدار الكتب : ٤٠٨٨ /٨٩

الترقيم الدولى : ١/ ١٨٧/ ٣٠٧ / ٩٧٧

هذا الكتاب

- « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (قرآن كريم) .

- هذا المقصر وهذه المنزلة وعد الله عباده الصابرين .. ترى أى أنواع الصبر الذى له هذه الدرجة ؟ ..

  ومن هم الصابرون الذين يستحقون هذه المنزلة ؟ ..

  وهل الصبر نوع واحد .. أم أنواع متعددة ؟ ..

- وهذا الكتاب « الصبر فى القرآن » يوضح لنا أنواع الصبر المختلفة ، التى وعد الله عباده هذه المنزلة الفريدة ، فيبين « حقيقة الصبر فى القرآن وضرورته » . ثم يشرح ما هى « مجالات الصبر فى القرآن » . ثم يصور لنا « منزلة الصبر والصابرين فى القرآن » . ثم يعطينا الأمثلة والنماذج « لشخصيات صابرة ذكرها القرآن » . ثم يرشدنا إلى « ما يعين على الصبر فى القرآن » .

- والدكتور يوسف القرضاوى ــ مؤلف الكتاب ــ انتهج نهجاً جديداً . حيث حصر موضوعاً واحداً من موضوعات القرآن الكريم ، وألقى عليه الأضواء ، بعلمه وفقهه الغزير ، وأفقه الواسع ، وبأسلوبه السهل الرفيع . فأضاف إلى المكتبة الإسلامية موضوعاً فريداً فى بابه ..

- ويسر « مكتبة وهبة » أن تقوم بنشر هذا الكتاب للاسترشاد به على التعرف لأنواع الصبر فى مجالات الحياة المختلفة .. وبالله التوفيق .

